

الفصل الخامس والعشرون

معركة پيرس الاولى - خريف العام ١٩٠٨

الصفحة الاولى من المعركة:

«... من اولى اجراءات محمد فاضل پاشا الداغستاني بعد توليه ولاية الموصل وقيادة الجيش فيها أنه أرسل إلى الشيخ عبدالسلام يدعوه إلى مركز ولايته الموصل. إلا أن اصدقاء الشيخ في كل من الموصل وعقرة نصحوه بالتريث وخذروه من الذهاب إلى الموصل. وكان جواب الپاشا (على هذا التلكوء) تجريده (جيشاً) قوامه ستة آلاف جندي نظامي مع ستة مدافع. وفي عقرة أنذر الشيخ بأنه في حالة عدم اذعانه لاوامره ورفضه الذهاب إلى الموصل فإن جنوده سيزحفون ويخربون زاويته (١)». فرفض الشيخ الحضور وأبى الانصياع لأمر الاستسلام ونفذ والي الموصل تهديده وزحفت قواته حتى بلغت عقرة وبعد مشاورات مع الاغوات و رؤساء القبائل المعادين الذين هللوها وكبروا للتطور الجديد تقرر أن تقوم الحكومة بنشر قطعاتها العسكرية للهجوم بمساندة قوات المرتزقة الكرد لإستخدامهم كطلائع كشفية وكادلاء وأداء بعض الخدمات الاخرى وحمل الانتقال وهذه هي المرة الاولى التي عمدت الدولة العثمانية الى استخدام الجيش والمرتزقة معاً ضد شيخ بارزان. لقد استغرق خروج الحملة من الموصل ووصولها إلى عقرة ثم إكتساح بارزان فالعودة منها ستة اشهر كاملة وسنحاول الان فيما يلي تسجيل صفحات المعارك في منطقة (پيرس - بارزان) كما سمعناها ممن ساهموا فيها وقد بلغوا اراذل العمر - وكما تلقينا بعضها عن طريق التواتر.

لم يتهول الشيخ وأنصاره هذه القوة التي لاعهد للمنطقة بها من قبل (منذالفتوح الاسلامية) ولم يفقدوا معنوياتهم بل أخذوا يتدارسون الموقف باناة و ببرودة دم. وكانت الكلمة متفقة على عدم الرضوخ لارادة المعتدي ومقاومته. لقد جعلت الحكومة العثمانية لهذه الحملة أسبابها الرسمية وتتلخص في تمرد الشيخ البارزاني على الحكومة وشقه عصا الطاعة واتصاله بدولة اجنبية للقيام بحركة

١- ف. نيكيئين (العائلة البارزانية) مجلة (شمس كردستان) العدد الخامس.

انفصالية. وانشاء علاقات مضرّة بامن الدولة بين المشيخة والجمعيات الوطنية الكردية السرية في استنبول وبوتان.

عبرت قوات الشيخ نهر الزاب الى جبل (پيرس) و تمركزت في سفوحه الغربية و كانت وحدات القوة بقيادة كل من (فقي عبدالرحمن) و (خوشوى سيلگى) و (عبدى بيكولى) و (حاجى دورى) و (سليمان و سمان اغا). كان هؤلاء القادة ولاول مرة يواجهون قوات نظامية ذات اسلحة عصرية بضمنها المدافع وهو مما لاعهد لهم به من قبل وهم الذين لم ينازلوا الا رجال قبائل يستخدمون نفس سلاحهم العتيق ونفس تكتيكهم الحربى. وكان يساند القوات النظامية قوات من المرتزقة الكرد الخبراء بجغرافية المنطقة - خوانقها، شعابها، كمانها، موانعها الطبيعية الخ....

كانت خطة الشيخ واعوانه دفاعية صرفة وهى ان يمسكوا جبل پيرس ومداخله و يحولوا دون وصول القوات الحكومية والمرتزقة الى قراهم عبره لان جبل پيرس يؤلف العقبة الغربية وهو خط دفاع ممتاز ومن الدرجة الاولى.

تحرك الجيش التركى من عقرة الى (دينارته) و نصب مدافعه هناك و شرع مشاته في التقدم نحو پيرس في الصباح الباكر وأخذت المدفعية تقصف سفح الجبل. وعندما أصبحت ألقطعات العسكرية التركية ضمن مدى مرمى بنادق القوات البارزانية فتحت النار ودام الاشتباك عدة ساعات وفي الوقت ذاته كانت قوات المرتزقة تهاجم السفوح من جوانب عديدة بهدف تطويق القوات البارزانية و ارباكها فتفرقت واضطرت الى أخلاء بعض المواقع و التقهقر خوف التطويق و صعوبة الاستمرار فى الصعود أمام قوات متفوقة بنسبة غير معقولة. لكن (فقي عبدالرحمن) بقى صامداً فى قطاعه ولم تبرح قواته مواقعها وواصل المقاومة أمام الوحدات النظامية العثمانية الى ان أوقع بها الهزيمة بعد اصابة عدد كبير منهم ثم انتقل الى الهجوم وراح يطارد فلولهم المنهزمة نحو (دينارته) وكان هذا ايذاناً باشاعة الهزيمة وبالبدء بالتقهقر العام نحو مواقع الانطلاق الاولى. وفي أثناء المطاردة وقع خمسون اسيراً من الجنود النظاميين بيد قوات بارزان مع كل اسلحتهم. وقتل من زعماء المرتزقة (توفيق اغا هرنى) و منى الجيش العثمانى عموماً بخسارة جسيمة فى الرجال والمعدات ولم يفقد البارزانىون غير قتيلين هما (سارم) و (مامل) و جرح (صالح بيرسياقى) شقيق (احمد اغا بيرسياقى). توقفت قوات الشيخ عن تعقيب الجيش المنهزم الذى أنهارت معنوياته. وقد قصد الشيخ عبدالسلام من وراء ذلك تأكيد رغبته فى السلام و حقن الدماء مراقبا رد الفعل الحكومى.

الصفحة الثانية

انتصر الشيخ في الجولة الاولى من معركة پيرس. ووزع على قواته الكميات الكبيرة من الاسلحة الجيدة التي اغتثمت واطلق سراح الاسرى تأكيداً لحسن نواياه - لكن والى الموصل و قائد الحملة كان أبعد من ان تطمئن مظاهر الرغبة في إنهاء القتال التي بدت من الشيخ و لعله عد الهزيمة التي منيت بها قواته اهانة شخصية ولطخة على سمعته العسكرية فقرر ان يكر عليه بحملة ثانية و خطة جديدة.

كانت هذه الخطة الجديدة تركز على عزل الشيخ عزلاً تاماً و تحشيد اكبر ما يمكن من القوة الضاربة. فألب عدداً أكبر من القبائل و فتح جبهة قتال جديدة من ناحية الشرق فضلاً عن الجبهة الغربية في پيرس. يقول (ف. نكيتين) «... قام الباشا بتحريض عشائر السورجى و خوشناو ومامش و أشنو على مهاجمة مواقع الشيخ عبدالسلام بالتعاون مع قوات الحكومة...» (٢) ثم نسق خطته مع حركة عشائر (الريكان) و (هورماري) و (برواري) و (تيروي) و (زيبازي) و (گوران) و (زراري) و (دزهي) و (گهردبي) و (رهفه ندوك) و (بيره سني) و (برادوست). فكان اشبه شيء بالنفير العام. و استغرق اعداد هذه القبائل للقتال و اعادة تنظيم الجيش العثماني المنهزم اكثر من ثلاثة اشهر.

بدأت عشائر (مامش و منگور و اشنو) بالزحف من شرقي منطقة بارزان و بنتيجة الضغوط التي مارستها الحكومة رسمياً فقد اضطر عدد كبير من الذين يعطفون على الشيخ الى المشاركة في الحملة ضده اذ لم يكن في وسع أحد منهم البقاء على الحياد والا اتهم بالتعاون مع البارزاني. و هكذا وجد بعض العشائر نفسه مرغماً على خوض القتال ضد بارزان لذلك حاول أفراد هذه العشائر أن يخففوا قدر المستطاع من جريمة مشاركتهم، بالترفع عن عمليات الحرق و التخريب و اتلاف المزروعات و سلب و نهب القرى التي يدخلونها. و يروى بهذه المناسبة انه عندما اغار احد افراد خوشناو على قفير نحل يعود لمنزل احد البارزانيين و جنى منه مقداراً من العسل و عرف بذلك رفاقه ضربوه ضرباً شديداً و جردوه من سلاحه و نبذوه عنهم عقاباً له. على ان هذا السلوك لم تلتزم به عموم القبائل. و شاركت قبائل شمدينان ايضاً في غزو المنطقة فاكسحتها من الشمال باحتلالها منطقة المزوري. وهكذا بدء الجيش العثماني بحملته الثانية.

قلنا كانت خطة (باشا الموصل) الجديدة تهدف الى تشتيت قوة البارزانيين بفتح عدة جبهات لتشعرهم بأنهم مطوقون من كل جانب ولا امل لهم في الافلات ولا حظ لهم في النجاح.

اجتمع الشيخ بقواده في بارزان و بحث معهم النتائج الناجمة عن تصميم الحكومة العثمانية على الاحتلال الشامل لكل المنطقة و كيف ان الاصلاح الذي طلبه و سعى اليه ادى الى سوق حملة عسكرية ستكون عاقبتها المزيد من الخراب والدمار و اعترف بان مواصلة القتال ضد قوات متفوقة جدا هو محض جنون و معناه الخراب الشامل الذي لا طائل تحته. فتم الاتفاق على (عدم المقاومة) و على اختفاء الشيخ مع اعوانه المقربين فكانت لحظات حزن عميق و ساد الوجوم والكآبة الوجه حين راح الشيخ يودع اصدقاءه و مرديه. ثم ترك المنطقة الى جهة مجهولة. وبدأت القرى تطلب الدخالة والامان تباعا. وارسل الشيخ اسرته من النساء والاطفال الى قرى الاثوريين موضع ثقته. وضاعت آثاره و كأن الارض ابتلعتة. اما اعوانه فقد حلوا تشكيلاتهم الكبيرة و نظموا بدلاً منها مفارز صغيرة العدد سريعة الحركة انتشرت في منطقة واسعة. وبعثت النسوة الكبيرات السن من بيت البارزاني في اوساط المزوريين.

من ذيول الحملة - بطولة حاجك چمى

اكتسحت قبيلتا المامش والمنگور اراضى الشيروانيين من جهة الشرق و تقدمت القوات النظامية من الجبهة الثانية (دينارته) الى بارزان و التقت جميعا فى قلب منطقة الشيخ فنهبت المواشى والقطعان و احرقت دور بارزان و حقولها و عاث مرتزقة الجيش التركى فى المنطقة فساداً شفاءً للحدق القديم الذى تكنه هذه القوات لبارزان و شيخها و اهاليها. كان حاجك چمى أحد قواد الشيخ قد حل اسوة بغيره تشكيلته العسكرية الكبيرة واحتفظ بمفرزة صغيرة و فى أثناء هجوم جماعة المرتزقة على الشيروانيين كان هو فى طريقه الى ديارهم فسمع دوى الرصاص و نداءات الاستغاثة تاتى من بعيد فأرسل من يستطلع جلية الامر و عاد الرسول ليخبره ان المرتزقة ينهبون مواشى القرى و يعتدون على اهاليها العزل الذين لم يستجيب طلبهم الامان و الدخالة. فلم يتمالك (حاجك) نفسه و توجه الى القرى المعتدى عليها و اشتبك مع المعتدين و تمكن بقوته الصغيرة من ايقاف تقدمهم و كيد هم خسائر. الا انه اصيب برصاصة فى يده عند ما كان يهجم باخراج الرصاص من اجذته. استهان (حاجك) بجرحه البسيط الا انه عجز عن ايقاف النزف و فقد مقداراً كبيراً من دمه فخارت قواه فحمل الى احد الكهوف حيث لفظ انفاسه الاخيرة. بقيت ذكرى بطولته هذه راسخة فى اذهان البارزانين حتى اليوم يرددونها فى مجالسهم وأخذوا (جريا على عادتهم) يسمون اولادهم باسمه تخليداً له.

من الجانب الحكومى اعتبرت الحركات العسكرية فى منطقة بارزان منتهية فى

تمركز الجيش في المنطقة

عسكر حوالي ألف من الجنود الاحتياط (أرديف) في بارزان و تمركزت وحدات عسكرية اخرى في مناطق حساسة اخرى مثل (بيره كه پره) و (هه رنى) و (ميرگه سور) و (سيلگى). ورأى الاغوات أن الفرصة التي التي انتظروها قد سنحت لهم ليعيدوا السيطرة على قرى المنطقة ويستغلوها. أما آل مصطفى اغا فقد انحازوا الى جانب الحكومة بعد أن أخذت رياح مصالحتهم تأتي من تلك الجهة.

كانت الاجراءات التي اتخذها الجيش التركي في منطقة الشيخ تتضمن تعقيب ومطاردة قوات الشيخ المشتتة والمختفية. ومساعدة الاقطاعيين على ممارسة نفوذهم القديم و استخدامهم في عمليات التعقيب والمطاردة التفتيش عن المطلوبين والقبض عليهم. و تثبيت السيطرة الحكومية في المنطقة عن طريق اسناد الادارة المدنية.

تحقيقا لكل هذا فرضت القوات المحتلة رقابة دقيقة على سائر القرى لضمان عدم تقديم المعونة للمجموعات المختفية وقام المرتزقة المحليون وهم مناوئو الشيخ بتجريد دروريات في المناطق التي كان يتواجد فيها الثائرون وحدثت الدولة بعض الاغوات و اعوانهم لعمليات التجسس داخل منطقة الشيخ والمساعدة في اجراءات التفتيش و فرضت عقوبات صارمة على كل من يعتدى على افراد الجيش و كل من يقدم الماوىء او الطعام (للعضاة). وهذا ما جعل انصار الشيخ يعانون اشد الضيق والمصاعب في ايام الشتاء القارسة. وكثرت الوشايات واقتيد المخبر عنهم الى سجون الموصل و عقرة

كانت مجاهل الجبال ذات الاخاديد والاجراف الشديدة الانحدار والشعاب الضيقة الصعبة المرتقى والكهوف والوديان العميقة ملاذا لاعوان الشيخ و ملجأ حصينا لان القوات كان مشكلتهم العظمى. لذا اضطروا الى العيش كإنسان الغابات الاول يقتاتون على النباتات و جذورها و على الاعشاب. ولم يكونوا يستقرون في مكان واحد زمانا طويلا خوف الوشاية. وركزت السلطات البحث عن شيخ بارزان ولجات الى كل وسيلة متصورة فكانت تعذب القرويين لارغامهم على الادلاء بمعلومات عن تنقلاته. وكان مجرد ظهور احد رجال الشيخ في قرية ما و علم السلطات بذلك معناه الحكم بالدمار على تلك القرية وزج الكثيرين من ابنائها في السجون و هذا مما اضطر الكثير من المعلنين حيادهم في النزاع (وهم يؤيدون الشيخ في السر) الى التعاون مع السلطة علنا.

بسبب نشاط الجواسيس اكتشف مخبأ والده الشيخ و النساء المسنات في احد الكهوف مختفيات فزحفت قوة الى (وه لات ژيرى) وحاول الحراس المرافقون للعائلة وهم

قلة - الدفاع عنهم ووقع اشتباك الا ان القوة الحكومية كانت كبيرة فترك المدافعون مواقعهم ولاذوا بالفرار مخلفين النسوة والاطفال (ومن بينهم ملا مصطفى البارزاني) تحت رحمة الحملة فسيق الجميع (... هؤلاء المتآمرون - على حد تعبير ويغرام). الى سجن الموصل (٣).

ولقى افضل قواد الشيخ (فقي عبدالرحمن) مصرعه في ظروف غامضة. واختلفت الرويات حول ظروف مقتله. والمعروف ان السلطات الحكومية احتزت راسه بعد قتله وارسلته الى عقره. اما جسده فدفن في كهف سمي فيما بعد باسمه. واعتبرت الحكومة التركية هلاكه ظفرا كبيرا.

لقد رزحت المنطقة تحت وطأة الوضع الاقتصادي وعاشت كابوس الاحتلال طوال اربعة اشهر ابتداء من كانون الاول ١٩٠٧ حتى آذار ١٩٠٨.

الفصل السادس والعشرون

أيام الاختفاء

تنكر الشيخ بزى الدراويش و طلاب العلم و وهب بغله لاحد المحتاجين امعانا فى التنكر وواصل سيره على القدم يرافقه امين سره (محمد هوكى) ووجهته بهدينان وكانا وهما يجتازان قراها العديدة يلتقيان بدوريات التعقيب التركية فتمر بهما دون ان تفتن لهما. وكثيرا ما غادرا قرية لتدخلها بعدها بساعة او اقل دورية تركية جادة فى تقصي آثارهما. كانت السلطة شديدة الاهتمام بالقبض على الشيخ وعرضت مكافآت نقدية مغرية لمن ياتى به حيا أو ميتا او يدلى بمعلومات تؤدى الى القبض عليه.

مكث الشيخ اياماً فى كهف يقع فى ضواحي (نيروه) تحيط به اشجار البلوط الضخمة وهو يحمل الى اليوم اسمه اذ يعرف بـ (كهف الشيخ). وبعد ان احس بخطر البقاء فترة اطول غادره واختفى.

وفى قرية (سپينداروك) مكث ليلتين فى دار (الحاج بدرى السندي) ثم غادرها الى مكان مجهول. لقد كان وضعه يختلف عن وضع والده عندما هرب هذا الاخير الى رواندوز فقد وقفت الدولة العثمانية اذ ذاك موقف الحياد فى الصراع بين الشيخ محمد و بين الحلف القبلى الذى تزعمه الشيخ محمد صديق النهري. اما الشيخ عبدالسلام فلما كانت الحكومة التركية هى الطرف الثانى والرئيس فانه اصبح بالمصطلح القانونى (طريد العدالة) لا يامن على نفسه من احد ولا يستقر فى مكان الا ليرحل عنه الى آخر. واضطر الى اخفاء هويته تماما غير معتمد الا على اخلص اصدقائه.

من بين اصدقائه الخالص الذين آووه (الشيخ محمد نور القادري) الذى اقدم علي اخفائه فترة من الزمن. وبطيريك الاثوريين (المارشمعون بنيامين) الذى استضافه ردحا. وكان والى (ولاية وان) هو مكلفاً بالبحث عنه وتعقبه فارسل قوة من الجندرمة الى دار «البطيريك» فى عاصمته قرية (قد شانس) فدخلت غرفة الاستقبال وكان عبدالسلام فيها. فانشا أمر القوة يتحدث الى البطيريك حول مهمته قاتلا ان والى (وان) ارسلنا اليكم بعد ان بلغتنا اخبار عن وجود الشيخ عبدالسلام فى حماكم وانى بامر الوالى اطلب منك تسليمه».

انكر (مارشمعون) وجوده بقسم فريد فى بابه ينم عن ذكاء والمعية فى تفادى الكذب اذ اجاب أمر القوة بقوله «اقسم لك بالانجيل انى اراه بمقدار رؤيتك له انت لا اكثر

ولا اقل! «وكان قسماً صحيحاً في الظاهر لكنه يفيد انكار وجود الطريدة اذ ان الشيخ (عبدالسلام) كان موجوداً فعلاً وكلاهما كانا يشاهدانه. اقتنع أمر القوة واسرع بمغادرة مقر البطريرك مطمئناً الى ان حبراً عالى القدر مثله لا يمكن ان يكذب.

كان (مارشمعون البطريرك) الاثوري من اصدقاء الشيخ الحميمين وقد برهن على مبلغ وفائه في وقت المحنة اذ لم يكن وحده في حمايته وانما كانت معه زوجته الثانية. , حادث وفاة آخر للشيخ يرويه (ويگرام) (١) «... ظل الشيخ شهراً وهو شريد لاسقف يظله متنقلاً بين الجبال. وهنا جنى ثمرة معاملته الكريمة للقرويين فلم يخطر ببال احد من رعيته مسيحيين كانوا ام مسلمين - ان يخونه ويسلمه الى اعدائه..... وكان احد الارتال العسكرية يعقب الشيخ

اثناء ذلك قبض على صبي تأخر عن جماعة الفارين فطلبوا منه مهديين ان يدلهم على الجهة التي سلكها شيخه الا ان الصبي كان اصلب من الحديد واجابهم - اقسام باسم الشيخ اتى لن اخبركم!. وكان هذا كل ما استطاعوا انتزاعه منه بعد صنوف الترغيب والتهديد. وتشاء الصدق ان يكون قائد الرتل التركي طيب القلب فلم يستطع معاملته الا سير الصغير. لكنه اسرع ليستخلص حكمة من سلوكه بعد ان اخلى سبيله فقد قال لضباطه وهو يتنسم (لن نربح من هذه الحرب شيئاً وبامكانكم ان تحكموا من هذه الواقعة على طبيعة الرجال الذين نقاتلهم. فهذا الطفل كان تحت رحمتي تماما ولن يحاسبني احد على قتله لو شئت. ومع معرفته هذه الحقيقة فقد تحداني وحلف باسم شيخه كانه يحلف باسم الله). (٢)

من اعوان الشيخ المقربين الذين قاسموه المحنة (عبدالرحمن افندي العقراوي) ومراقفه (رؤوف). شاءت الصدق ان تدفع بهذين الاثنين الى قرية (باسيلان) في (التياري العليا) واستاذنا بدخول بيت المختار فرحب بهما وما ان اقتعد كل مجلسه حتى لاحظ وجود ضيفين آخرين على مقربة منهما احدهما ملثم لا يبين من وجهه شيء والآخر مستلق على ظهره وقد بدا عليهما الارهاق والتعب. وبعد قليل لاحظ المختار يدنو من الجالس الملثم ويكلمه همساً ثم يعود ليهمس في اذنه ثانية. فساورت (عبدالرحمن افندي) المخاوف واخذ يفكر بالفرار لشكته بان يكون هذان المجهولان من جواسيس السلطة وان المختار متواطىء معهما. وارتابك (عبدالرحمن) وركبه الجزع وفيما هو انهب للافكار السوداء اذ بصاحب الوجه الملثم يكشف عن وجهه فاذا به شيخ بارزان فتحل البهجة محل الخوف ويكون لقاء منشود على غير ميعاد. والح (عبدالرحمن) على الشيخ بالبقاء معاً وان لا يفترقوا لكن الشيخ ابدى خطورة اجتماع اربعة وهو اجلب للشك واكد ضرورة اخفاء هوياتهم

١- مهد البشرية ص ١٣٣
٢- المرجع السالف الص ١٣٣ - ١٣٤

فانطلق كل في سبيله.

انقضت اشهر الشتاء واعقبه ربيع العام ١٩٠٩ المبكر وهنا قرر الشيخ وضع جد لتشرده وتنكره فعاد الى منطقته المحتلة وهو لا يزال متخفيا ونزل في (بابسيتقا) وهي قرية منقطعة تقع خلف جبل (شيرين) في اعماق واد تتناثر على طوله قرى عديدة بائسة صغيرة. في البدء استقبلوه استقبالا اعتياديا كاي ضيف ولما كشف لهم عن هويته انفرجت اساريرهم غبطة وزادت حفاوتهم به. وكان من الطبيعي ان يسرى خبر ظهوره الى القرى المجاورة. وهكذا حتى بلغ جماعات الشيخ المسلحة التي كانت قد انحلت الى مفارز صغيرة فخرجت من مكائنها للترحيب به وتجمع اعوانه ومحاربوه حوله من جديد الحكومة الحكمة ترقب تنامي قوة الشيخ دون ان تحرك ساكنا حتى لكان المفاجأة شلت افكار المسؤولين.

الفصل السابع والعشرون

معركة سه ري باز - ١٩٠٩

كما يبدو كان ثم خلاف في وجهة النظر الرسمية بخصوص معالجة الوضع والتعامل مع الشيخ عبد السلام ففريق من رجال السلطة كان يدعو الى المسالمة واستخدام الدبلوماسية. ويمثله القائمقام العسكري (العقيد) صفوت بك. كان هذا الضابط يجذب التفاوض والتفاهم في حين كان الوالي (محمد فاضل باشا الداغستاني) يريد المضي في استخدام القوة. وطال الجدل بينهما حتى غضب الوالي من صفوت بك واخذ يعمل لازاحته من منصبه متوسطا بالجهات الرسمية في استنبول.

استنفر الوالي عشائر السورجي والگوران والزيبار والهركي مجدداً وبده يزحف بمعظم قواته نحو بارزان وهدفه جبل شيرين صعوداً الى موقع (سه ري باز) المشرف تماما على الوادي وكل قره حيث يتركز الشيخ.

احتشدت القوات الحكومية ومرتزقتها في اعلى اجبل (اي قمة سه ري باز) ونقلت مدافعها اليها بصعوبة شديدة وتهيأت القوات النظامية والمرتزة للهجوم نزولاً لاحتلال قري (وه لات زيري) وعلى وجه خاص (بابسيقا). وكان الشيخ طوال هذه الفترة التي اعقبت ظهوره في تلك القرية قد التزم جانب السكون ولم يصدر منه مايمكن اعتباره حجة لقتاله. الا انه لم يكن غافلاً في عين الوقت فقد بادر فعياً قوته تعبئة تامة وقام بتحسين بعض المواقع. بدأت المدفعية تقصف القرى الداخلة ضمن مدياتها مركزة على (بابسيقا) اذ كانت الخطة التركية تعتمد على التمهيد بالقصف المدفعي ثم تقدم الجيش والمرتزة نزولاً الى اسفل الوادي. فسرعت بالتقدم بينما بقيت وحدة عسكرية تحتل المواقع التي نصبت فيها المدافع الثلاثة لحمايتها «كانت اول الاشتباكات التي رقيت الي مرتبة المعركة بالمفهوم العسكري» (١). وقد ادرك الشيخ خطة العدو وماينويه تماماً فترك القرية الى اطرافها وفوق جرف مشرف على قرية (داويد كا) امسك ببندقية واطلق طلقة النجدة واسرع قواده الى تنفيذ الواجبات المناطة بهم اذ كلف جماعة (ملا ملا محمود) و (محمد هوكي) و (محمد مل بياني) و (رجب مل هسني) بمواجهة القوات الزاحفة على الميمنة في حين تولى جماعة (ملا حسن دلاني) و (قادر سيرى) وآخرون مهاجمة عدد من المواقع في موضع يعرف بـ (گه لياشيرين) وبهذا كانت قوات الشيخ منتشرة على جانبي

١- المرجع السالف ص ١٣٣

خط زحف القوات المنحدرة وكانت الخطة تقضى بان تحجم قوات الشيخ عن الاشتباك مع الطلائع تاركة لها الحرية التامة فى الانحدار الى الوادى واحتوائه من قبل كل الوحدات العسكرية النظامية.

القى الجيش الحذر جانباً عندما لم يجد مقاومة لزحفه وتوهم ان لاخطر بعد على مدفعيته التى كانت ترسل قنابلها باستمرار نحو اهدافها وظن امره ان الاشتباكات ستدور فى ضواحي قرية (بابسيقاً) فى بطن الوادى وكانت قوة بارزانبة ترابط هناك بالقرب من القرية. تريتت القوات البارزانبة وهى مواقعها التى اتينا الى وصفها حتى ابتعدت القوات التركيبية مسافة طويلة عن مدفعيتهها واذا ذاك باغت البارزانبيون مواقع المدفعية وحرسها بوابل من الرصاص واطبقوا عليهم من جميع الجهات فتوقف القصف ودافع جنود القاعدة عن مدافعهم وانفسهم الا ان قوات الشيخ شدت من ضغطها فاخذ الجنود يتركون مواقعهم ويلوذون بالفرار ولم يقد معهم زجر ضباطهم وتهديدهم واخذت قوات الشيخ المبادأة بيدها فطوقت القاعدة واحكمت تصويبها من مواقعها الممتازة فتساقط عدد كبير من المدافعين ولقى عدد من الضباط مصرعهم. وكانت مجموعة صغيرة من البارزانبيين تشاغل القوات الحكومية المنحدرة من القمة حينما وصلت امرها ابناء ما يحصل فى قاعدة المدفعية فصدرت الاوامر بوقف الزحف والنكوص على الاعقاب لفك الحصار عن القاعدة واستنقاذ المدافع الا البارزانبيين كانوا قد احتلوا القاعدة واتموا تصفية المدافعين عنها وفوجئت القوات الحكومية الصاعدة بنار حامية من الاعلى ومن الجانبين و من الاسفل تتخطفهم واحدا اثر الاخر فتسمزوا ولم يتمكنوا فى الوصول الى القمة واصابهم ارتباك عظيم فاستسلمت القوات النظامية وافلحت اعداد من المرتزقة فى كسر الطوق والافلات وتفرقت اشتاتا فى مجاهل جبل شيرين. لم تصب قوات الشيخ باية خسارة واغتنتم كميات كبيرة من السلاح والعتاد فضلا عن المدافع الثلاثة ووقع بيدها عدد كبير من الاسرى. وفى بارزان خارت معنويات القطعات العسكرية المرابطة فى بارزان وتفشت فيها روح الهزيمة وتهيات للانسحاب من المنطقة. بقول (ويگرام) بصدد المعركة وتنازجها «... وهكذا وجدت ثلاثة افواج من اصل سبعة زحفت عليه وجدت نفسها فى فح بين الصخور فاستسلمت له بكل اسلحتها وذخايرها ومدافعها ولم يلحق الجبليين خسارة مقابل ذلك. واخليت الموصل من قطعات الجيش المرابط فيها وارسلت لمواصلة القتال ودب فى قلوب سكانها رعب شديد وخافوا ان يقتحم مدينتهم اولئك الجبليون العتاة بقضهم وقضيضهم. لكن الشيخ اثر ان لا يخطو هذه الخطوة التى قد تجعل الشق كبيراً يتعذر التحامه»... «ولقد مررنا ونحن فى سبيلنا بميدان احدى المعارك. انه تجويف بركانى فى قفر يباب تقوم على جانبه جبال صخرية شديدة الانحدار. هاهنا اصطدم احد افواج الحكومة بالشيخ ومقاتليه اذ كان موجوداً بشخصه فى هذه المواقع. على انه ترك مهمة ادارة القتال بصورة فعلية الى شخص يدعى (عبدالقادر) (٢) الذى كان بمثابة ضابط ركن له. وتلك هى اولى الاشتباكات التى رقيت الى

٢ - المقصود هو (قادر سبرى).

مرتبة المعركة بالمفهوم العسكري اذ كان رجال الشيخ يتهيبون فكرة الالتحام بجيش الحكومة. فلاجل ان يلهب الشيخ حماسهم ويقضى على ترددهم اطلق الرصاصه الاولى. واطلاق رصاصه واحد في عرف شعب كردستان معناه الاستنجد وطلب العون. امسك الشيخ بالبندقية واطلق طلقة واحدة نحو السماء بحركة درامية رائعة كأنه يستمد العون من الله نفسه. فكانت معجزة اليوم اذ تم اسر الفوج كله مع ثلاثة مدافع جبلية..... كان الجيش الذي جرد عليه خليطاً من النظاميين والمرتزة أنصاف المدربين ولم تكن ضمائرهم مرتاحة لحربهم شخصاً له هذا المقام الدينى المقدس.... ولم تتعد اجراءات الشيخ بعد انتصاره نزع سلاح اسراه واطلاق سراحهم بعد اخذ اليهود والميثاق منهم بان لا يحاربوه ثانية. لما لم يكن لديه سجن يحفظهم فيه فالبديل الوحيد هو ان يقتلهم وهذا معناه حرب اباده وهو شىء لم يكن يرغب فيه قط.» (٣)

على اثر هذه المعركة تالق نجم الشيخ فى الاوساط الشعبية واخذت الدوائر الرسمية تحسب له الحساب كما ان معنويات بارزان وحلفائها ارتفعت كثيراً وقد كفل لها السلاح والعتاد المغنم تسليح عدد كبير من المقاتلين الجبليين بسلاح جيد.

بعد هذه المعركة طرء تغير ملحوظ على نظرة الحكومة الى الشيخ وبدت بعلائم تشير الى نية استنبول فى استرضائه وتسوية الخلافات. ومع اننا لانكر اثر هذه المعركة فى التبدل فى وجهة النظر الحكومية الا ان مؤرخى تلك الفترة الامور يذكرون بان التحقيق الرسمى فى شكايات الاغوات على شيخ بارزان و لائحة اتهاماتهم التى اتينا الى ذكرها والذي كانت السلطات قد بدأت به قبل الاشتباكات وانتهت منه بعد هزيمة (سه رى باز) اثبت براءة الشيخ مما نسبته اليه اعداؤه والوشاة به لم يكن له اى علاقة بحكومة روسيا القيصرية ولا يتخطيطه للانسلاخ عن الدولة العثمانية. و ممن نوهوا بذلك التحقيق الرسمى صاحب كتاب (مهد البشرية).

وقت يضاف الى ذلك سبب آخر وهو ادراك الحكومة انها بحملتها المركزة على مركز واحد من مراكز القوة فى بلاد كردستان قد ابتعدت عن سياستها التقليدية اعنى المحافظة فى تلك الربوع على توازن القوى بين الرؤساء والزعماء وعدم السماح لكفة الواحد بالرجحان على كفة. لذلك فالغلو فى (معاينة) بارزان او القضاء على التكية لا يعنى غير استعلاء سلطة الاغوات و سيادة المشيخة النهرية على الموقف ولم يكن هذا الوضع باقل خطراً عليها من بقاء تكية بارزان قوية.

بناء على هذا او ربما لعجز فى الدولة لاغير أسرع الحكومة فاعزت للقائم مقام التركي فى المنطقة بدعوة الشيخ للمفاوضة وابلغاه بان الدولة قد اصدرت فرماناً بالعفونه

وهي تسعى الى اعادته الى بارزان وفتح صفحة جديدة من السلم والاستقرار ودفن الماضي.
وطلب منه الحضور الى قرية (باز) لاجراء المحادثات وانه (اي القائمقام) سيكون في
استقباله هناك.

كان شيخ بارزان في (بابسيقا) وكان العديد من انصاره وافراد أسرته في السجون
وبضمنهم امه العجوز وأخوه الاصغر. فلم يتردد في انتهاز الفرصة وخرج من (بابسيقا)
بحرس قوى وعند وصوله (به رروژ) توقف في (ره زيا) حيث كان ثم من ينتظره ليخبره بان
قرية باز محل الاجتماع المقرر محاطة بالجند فعاد ادراجه متوجها الى (بالندا) ولم يتم
الاجتماع. ان احدا لا يدري هل كان حشد الجند جزء من فخ منصوب للشيخ ام مجرد استعراض
قوة او لغرض الحماية؟ لكن الشيخ على اية حال اثر الحذر

الفصل الثامن والعشرون

الانتصاف من الاقطاعيين.

قلنا فيما سبق ان الاغوات استغلوا اختفاء الشيخ عن الانظار و احتلال قوات الحكومة سائر المنطقة فعادوا ليتحكموا بمصائر الاهالي تسندهم حراب الجيش. بعد (سهرى باز) و فيما كانت الحكومة العثمانية تحاول الاتصال بالشيخ لاصلاح ذات البين اخذت الاشتباكات المحلية بين الاهالي و قوات الشيخ من جهة و بين مراكز قوى الاغوات تنتشر في طول المنطقة و عرضها. فمعظم القرى البارزانية و احلاف بارزان منها كان سلم للاغوات فتقاسموا فيها النفوذ كالسابق و ممن استعاد قبضته (عبدالله آغا الزيبارى) الذى ارسل ابن اخيه (نصرالله آغا ابن فتاح آغا) نائبا له في قلعة (سيرى). يصف (ويگرام) هذه القلعة قائلا انها تقع على مرتفع من الارض و هي بناية ساذجة الهندسة الا انها محصنة بالاسوار و كأنها برج مراقبة من الدرجة الثانية (١) على انها كانت في ذلك الحين تقوم بخدمة لا تثنى للاغوات في التضييق على اهالي (ولات زيرى) اقتصاديا . كان خطر المجاعة ماثلا للجميع اضافة الى خطر قيام المذابح و اعمال الشقاوة نتيجة لتراكم التهمة ضد هذا الاغا و رفاقه الاغوات عند كل القبائل المنتمية الى المشيخة بسبب معاملتهم السيئة اثناء الاحتلال العسكرى للمنطقة و دورهم المخزى اثناء الحركات العسكرية. كان (نصرالله آغا) هذا شابا جافى الطبع حاقدا محدود الفكر لا سبيل للتفاهم معه و لا يعرف للمرونة و اللبونة معنى فضرب حصارا محكما على تنقل الاهالي و منعهم من الذهاب الى عقرة و غيرها لشراء الارزاق الامر الذى دفع القوم الى مراجعة الشيخ و طلبهم منه ان يضع حدا لاعمال هذا المتجبر كان الشيخ آنذاك فى (بالندان) ففكر ان يعالج القضية بالروية و الحسنى و استدعى أحد اعوان نصرالله و اسمه (ملا شيخ) و طلب منه ان يذهب الى صاحبه و يبلغه بان شيخ بارزان لا يرغب فى خصومته مطلقا و كل ما يطلبه منه هو السماح للباحثين عن الاقوات بالمرور و عدم التعرض لهم. و انه لا بد عالم بازمة الغذاء و المجاعة المتفتشية. و اكد له نيته فى لقائه للتفاهم. خرج الرسول متوجها الى القلعة و ظل الشيخ ينتظر و فى اليوم التالى عاد (ملا شيخ) و وقف امام الشيخ عبد السلام و الجمع الحاشد متهيبا لا ينبس بحرف فأبى عليه الشيخ الا ان ينهى اليه بالجواب علنا. كان الجواب كصاحبه خشنا بذينا يتضمن الرفض البات و اذ ذاك قرر الشيخ تصفية الحساب معه بشكل حاسم و جرد حملة لاحتلال القلعة.

تألفت قوة من المقاتلين الأشداء برزمنها كل من (سعيد ولي بگ) الشيرواني و (شريد ملا حسن) الدلاني عبرت هذه القوة الزاب الى ضفته الغربية و اتجهت نحو القلعة. كان ليلة ربيع غزيرة المطر شديدة الريح. كانت القلعة نسبة الى قلاع اغوات كردستان تعد من القلاع المنبوعة الصعبة الاقتحام ذات الاسوار المتينة العالية. و كانت ابوابها موصدة و قد طلق كلب الحراسة خارجها. لقد لعب هذا الحيوان دورا هاما في احتلال القلعة كان ملكا لمقائد البارزاني (فقي عبد الرحمن) الذي لقي مصرعه كما بينا في فصل سابق و قد هام على وجهه بعد ان فقد سيده فعثر عليه اغا القلعة فضمه اليه و دربه على حراسة القلعة ليلا فكانت صدفة خدمت المهاجمين اذ تعرف الكلب على معظمهم فاستقبلهم ولم ينبح او يات بحركة تنذر من هم في الداخل.

و كانوا يقضون ليلة انس و سمر و يرقصون و يدبكون على انغام الزرناي تتخلها الضحكات و الهتافات فشرعت الحملة في توسيع الثغرة التي ينفذ منها الماء في قناة تمتد من عين الجبل الى داخل القلعة. بعد ان احدثوا فتحة كافية لجسم الانسان تسللوا جميعا الى داخل الصهريج ثم الى القلعة و فاجأوا الاغا طالبين منه الاستسلام و عندما رفض ولجا الى المقاومة هجم عليه البارزانيون. كانت المعركة قصيرة لان المقاومة ضعفت بعامل المباغثة و بسبب الارتباك الذي اشاعه دخول هؤلاء غير المتوقع و كانت النتيجة ان قتل نصر الله اغا. و تم احتلال القلعة.

نظمت اغان شعبية عديدة في هذه المغامرة البطولية نختار منها القصيدة التالية -

طوق ذوو العمائم الحمر قصر (سيري) المنيع
(و نصر الله) ينادي الخدم و الاعوان ان هلموا. قاوموا
لقد صدر من (بارزان) امر بقطع رأسي،

قصر (سيري) قصر شامخ
يقع فوق مرتفع.

يطوقه رجال هبطوا من تحت ظلال الغيوم
(نصر الله) ينادي: اعزائي هلموا و اصمدوا.

لن نكف عن القتال

الا بعد ان نذيق ذويهم طعم العزاء و العويل

(سعيد اولي بگ) يخاطب (نسو) (٢)

استسلم و اطلب الدخالة

فالنجدة البعيدة عنك لن تصلك من عمك في (شوش)

ولن تصلك من (شرمن) كذلك. فهي بعيدة. "

و احربي على قصر (سيري) المنيع

٢ - نسو هو تصغير لاسم (نصر الله)

الذى احتله المریدون من جهاته الاربع

ها هم فتیان (كوره شهر) يهتفون بقوة.

الا فلنقاوم الا فلنقاوم

غير ان اصداء (شوش) و (شرمن) لا تستجيب

وفي زخم القتال لا احد يدري (انصرالله) حى بعد؟

ام هو مشخن بالجراح؟ ام انه لقي مصرعه؟ عجباً لا احد يدري

قصر (سیری) منيع يتكىء على جبل.

و امامه نهر ازرق اجتازه ذوو العمائم الحمر

ثم دخلوا القصر من خلال قناة الماء الجارى الى الداخل.

اوثقوا كتاف (نصرالله) و اقتادوه.

ثم اردوه قتيلا برصاصة الـ (ماوزر) و الـ (سوزنى)

و قذفوا بجثته الى النهر الازرق

عندها وجه (سعيد ولى بگ) خطابه الـ (نصرالله) قال: (٢)

انذرتك مرارا بان لن تصلك نجدة فهي عنك بعيدة -

لا من (شوش)

و لا من (شرمن)

و لا من عمك (عبدالله اغا)

و وجد الشيروانيون فرصتهم المواتية للانتصاف من الاغوات عندما عمد هؤلاء الى قتل احدهم (حادى) من انصار شيخ بارزان فالفوا من بينهم قوة قضت على معظم هؤلاء الاغوات رميا بالرصاص فى (سه روكانى) مركزهم الرئيس.

و ثارت قبيلة المزورى على اغواتها و فتكت بهم و ساد شعور عام بوجوب القيام

بتصفية شاملة لجميع الاغوات فذب الذعر فى القلوب و احتفى عدد من اغوات (كانى

بوت) بالشيخ فى بارزان خوفا من هجوم المریدين و فر بعضهم الى المناطق التى يحتلها

الجيش طلبا للحماية مثل (ال مصطفى اغا). كل هذه التصفيات كانت اعمالا عفوية قادها

اناس من ذوى الرؤوس الحارة بدون علم الشيخ او امر منه وقد ألمه الوضع كثيرا و اجتاحه

الغضب من المحرضين و الفاعلين و خشى التماذى فى الاعمال الانتقامية و سريانها الى

الاغوات الصغار الذين لم يكن اعتداؤهم يستحق مثل هذه التصفية الجسدية وهم كذلك

ممن يمكن كسبهم فاستدعى (خوشقى سيلكى) الذى كان قد تزعم حملة تصفية اغوات

المزورى و اقبل عليه ينتهره بعبارات قاسية مهينة ثم اندفع نحوه و انتزع من يده بندقيته

و وضعها فوق صخرتين ثم اهوى على وسطها بصخره كبيرة فكسرها نصفين و هى اهانة

عظيمة توجه الى محارب قبلى - فانفجر (خوشقى) باكيا لفرط ما ناله من الاذلال و التحقير

٢ - من قادة المریدين الذين احتلوا القلعة.

امام الملاء.
فكان بذلك نهاية عمليات التصفية ولم يجرؤ بعد هذا احد علي ممارسة العنف. هذا و
قد اقتحم الاهالي قصور الاغوات في القرى فاستولوا علي ما هو مخزون فيها من الحبوب و
اقتسموها فيما بينهم.

الفصل التاسع و العشرون

سياسة السلطة الجديدة
تجاه المشيخة

المفاوضات

جاء في (الضحايا الثلاث) «... سقطت الوزارة الاتحادية و تولى الحكم رجال حزب (الحرية و الائتلاف) و كان ناظم پاشا قد عين واليا على بغداد و ذلك قبل ان يستدعى الى تولى وزارة الحربية في استنبول من قبل اركان الحزب المذكور و كان هو احد اقطابه. فرأى هذا والي الحكيم ان المصلحة تقضى بوجود اسدال الستار على كل ما اسند الى البارزاني وما الصق به من تهم فاصدر العفو عنه و عن كافة المشردين البارزانيين بل و ذهب (اسعد پاشا الدرزي) و الي الموصل بالوكالة الي ابعد من هذا فطلب من الباب العالي منح وسام الي الشيخ عبدالسلام (١)».

و يتفق هذا تقريبا مع ماجاء في (امارة بهدينان) اذ جاء فيه «... ياتي ناظم پاشا و الي بغداد فيصدر العفو عنه (اي الشيخ عبدالسلام) و يعوضه الخسائر التي اصابته في حرب (محمد فاضل پاشا) ببضعة آلاف من الليرات و تبع امير اللواء (اسعد پاشا) قائد الفيلق الثاني عشر و والي الموصل (بالوكالة) هذه السياسة نفسها و يطلب من الباب العالي تليفه بوسام تقديرا لصداقته و اخلاصه فيوجه اليه الوسام المجيدى من الصنف الثالث (٢)».

على اية حال فان نتائج المعارك في (سهري باز) ان لم تكن العامل الاساسي لتغيير سياسة المسؤولين و موقفهم من الشيخ فقد كان لها الاثر الاكبر فيها. و بهذا اصبح بإمكان دعاة السلم و التفاهم و على رأسهم العقيد (صفوة بگ) ان يجهروا برايهم. و هذا هو الذي كان قد نصح بالحل السلمي و التفاوض بدلا من اللجوء الي العنف.

و كان قد ادلى برأيه هذا قبل الهزيمة العسكرية في (سهري باز) و لذلك اناطت الحكومة التركية به مهمة اللقاء بشيخ بارزان و التفاوض معه فغادر (صفوت بگ) الموصل

١ - عبدالمنعم الغلامى - المرجع السالف.

٢ - صديق الديمولوجى - ص ٩٨.

هو شديد الرغبة في التوصل الى اتفاق تام.

ووصل الى بارزان و ارسل يطلب اللقاء بالشيخ الذي كان في (بابسيقا) وخيره بتعيين مكان الاجتماع ففضل الشيخ ان يكون ذلك في مصيفه (تاتوك) و توجه اليها بحرس قوى و التقى بـ (صفوة بگ) و اجريا محادثات اسفرت عن الاتفاق على المسائل الملحة التالية:-
اولا - افراج الحكومة عن السجناء الذين اتهموا مع الشيخ في حركته و اطلاق سراح نساء الاسرة البارزانية .

ثانيا - التعويض عن الاضرار التي لحقت بالمنطقة جراء الحروب و اعمال السلب و القتل.

ثالثا - البدء فورا ببناء المدارس و المستشفيات و ايصال الخدمات الاجتماعية الاخرى الى المنطقة.

رابعا - تسليم المدافع و البنادق و سائر المهمات الاخرى التي غنمها البارزانيون الى السلطة.

خامسا - انسحاب الجيش من المنطقة على ان تبقى حامية رمزية قليلة العدد.

سادسا - بناء مراكز للشرطة و للادارة المحلية.

سابعا - عزل او نقل الموظفين الذين دفعوا بالامور الى هذا المسار السلبي و تسببوا في الكارثة و تعيين موظفين نزيهين يحسنون اللغة الكردية.

ثامنا - فرض العقوبات على الاقطاعيين الذين تحالفوا مع الموظفين المرتشين لتشويه موقف الشيخ. و حجب الثقة الرسمية عنهم.

اعلن الاتفاق و عودة السلام الى المنطقة من منابر اكثر الجوامع في اثناء خطب الجمعة. و كان الممثل التركي يردد قوله لـ (عبد السلام) - «اني ادرك مدى الاضرار و الغبن الذي لحق بكم و قد جئت لاصلاح ذلك» و قال له ايضا ارجو رفع التكليف فلست اظن انكم ستحضرون بهذا العدد القليل من المسلحين» و هو هنا يشير الى تجارب الشيخ السابقة و المحاولات العديدة التي دبرت لاغتياله. و هنا اوما الشيخ الى اتباعه فظهروا من مكانهم خلف الصخور . و انحدروا الى مكان الاجتماع. و قد اقترح (صفوت بگ) المزيد من المحادثات في قرية بارزان فوافق الشيخ في حين امتعض اتباعه من قبول الشيخ الدعوة و ساورتهم الشكوك.

و نزل الجمع الى القرية (بارزان) للمشاركة في المادبة التي اقامها صفوت بگ على شرف الشيخ.

كانت المنطقة بحاجة الى اعانة اقتصادية سريعة و كانت بحاجة الى عمل عاجل للتخفيف من الضائقة الناجمة عن الاحتلال و محو مخلفات الحرب و اثارها.

في العام ١٩١٥ كان بإمكان كل زائر لبارزان ان يسمع النشيد الوطني التركي الذي يشيد بالحرية و العدالة و المساواة ينشده اطفال المدرسة الجديدة كل صباح. (٣) فلاؤل مرة في تاريخ بارزان تؤسس مدرسة رسمية على قطعة ارض للشيخ. لقد حرص الشيخ علي القيام بزيارات اسبوعية لهذه المدرسة و تفقد احوال الطلبة و المدرسين. و يروى انه كان مرة في زيارة احد الصفوف فلمح تلميذاً قد خبأ خنجراً تحت حزامه التقليدي العريض. فنهاه عن ذلك ووجه كلامه له و لبقية التلاميذ مؤكداً بان الانقطاع الي الدرس و التحصيل اهم مما عده و ان الجميع بانتظار ما سيقدمونه من خدمة بعد ان يصيبوا من العلم حظاً. و بذل الشيخ جهوداً كبيرة في اقناع الاباء بمنافع الدرس و العلم و كان في اتباعه صلوذ تقليدي من هذا الشكل من التحصيل العلمي و من المدارس و اجبر اولياء امور التلاميذ علي ارسال اولادهم الي المدرسة فلم يسعهم الا الانصياع.

تطلعات الشيخ الوطنية

ان الروح الوطنية التي تحلى بها الشيخ عبدالسلام لم تكن سرا ابداً و هو من جانبه لم يحاول اخفاء ذلك قط. فبعد الوقائع و المعارك التي اسلفنا ذكرها بفترة قليلة نجده يصارح (الرحالة ويگرام) عند زيارته (بارزان) في احدى جولاته في بهدينان ، بكل ما يعتليج في نفسه من احساس تجاه تطلعات الشعب الكردي الي التحرر و الاستقلال و الاخذ باسباب الحضارة... كانت الساعة تقارب الخامسة مساءً عندما بلغنا اول بيوت القرية (بارزان) و كان حشد الرجال و الجياد المتجمع حول القلعة دليلاً علي وصول الشيخ و حاشيته قادماً من العمادية. و سبقتنا انباء وصولنا و استقبلنا وفد من لدن قداسته ينقلون لنا دعوة او بتعبير آخر امراً منه تحت الظروف الراهنة (!!) كيما ننعم بضيافته تلك الليلة فترجلنا عند باب القلعة بين حلقة من الأتباع الغلاظ الشداد. و استقبلنا الشيخ علي رأس درج حجري خشن المرتقى محيياً مرحباً و قادنا بنفسه الي (كبره) كان يستخدمها بمثابة قاعة استقبال مؤقتة و رجانا ان

٣ - تروى هذه الحادثة الطريفة التي وقعت اثناء المباشرة ببناء المدرسة. كان الشيخ يشارك الحفارين في العمل عند تخطيط اساس البناء و بيده القاس. حين اشار (صفوة بك) الذي كان حاضراً - الي الجنود الاتراك بالتحرك هرولة نحو الشيخ (ربما لمساعدته) الا هو الذي اثار ريبة مريد الشيخ فبادروا الي رمي فؤوسهم و رفع بنادقهم لدرء الخطر الموهوم فاسرع صفوة بك مشيراً الي البوقي لينفخ نغير التقهقر فادار الجنود ظهورهم لبنادق رجال الشيخ قبل ان يتحول الهزل الي جد. أما الشيخ فقد واصل عمله كأنه لم يلاحظ ماجرى.

نجلس على المطارح التي بسطت لنا حالا قبالتة..... كان تنازلا عظيما من رجل عظيم ان يخرج للقاتنا على رأس الدرج. ان اغلب الشيوخ البارزين يتعمدون ان يكونوا خارج الغرفة عند ما يدخل الزوار الاوربيون كي لا ينهضوا في استقبالهم مؤكداين بذلك تقدمهم عليهم. لكن الشيخ البارزاني كان يدخر لنا تكريما اسمي من هذا بتنازله الي تناول طعامه معنا و هذا ما اصاب اتباعه بتردد واضح. كيف يمكن ان يأكل (قداسته) مع اثنين من الكاوري؟ (الكفار)

و يصف ويگرام ملامح الشيخ كما رآه هو كمعظم سكان الجبال متوسط القامة ضامر الجسم ممتليء حيوية و نشاطا ذو وجه مهيب بشوش. يضع على رأسه عمامة بيضاء فوق قلنسوة. و يرتدى صدارا و سروالا بلون ابيض و عليهما جبة سوداء مطرزة بالاحمر. و فوق الجميع عباءة خضراء. و تتألف حاشيته من ثلاثين الي اربعين تابعا مريدا يتميزون بعمائمهم الاحمر ذات الاهداب السائبة. و اكثرهم كان يحمل مائتي اطلاقا او نحوها من الخرطوش الكردي و بنادهم هي من طراز (شنايدر و مارتيني) كانت قد اسندت الواجدة فوق الاخرى على حائط (البلايى - الكيره). و كان الجميع يظهرن لزعيمهم الشاب مظاهر الاحترام و الطاعة.»

اما عن روح التسامح الدينية التي كثيرا ما اشرنا اليها في السابق فيقول ويگرام «بعد زيارتنا (للشيخ) بزمن قصير. انفجرت براكين نزاع قبلي طويل الامد بين قبيلة التخوما (٤) و بين بعض جيرانهم الكرد المسلمين مؤخرا و بات ينذر بشر مستطير و حاول الطرف المسلم محاولات غير مستحبة لاقتناع اخوانه الاخرين في الدين بالانضمام اليه لشن حرب جهاد. و لقد أصبنا براحة عندما علمنا ان شيخ بارزان تدخل لفض النزاع تدخلا جديا حازما بعد ان رفض الموافقة على الجهاد رفضا قاطعا و منع اتباعه و مريديه من التدخل.

اقحم نفسه في القضية لانه غيور على استتباب الامن و اشاعة النظام و لصنع معنا جميلا اذ انه لم يكن مرتبطا باى التزام ادبي مع (التخوما) لاسيما بعد ان رفضوا ايواه عندما كان الجيش التركي يتعقبه (٥) «وفي نطاق حديثه عن قرية أثرية منقطة في الجبال يقول «ان (اردل) وهو اسم القرية - تستحق التهنتة من عدة نواح. فاهلها يقرون انهم لا يجدون سببا للشكوى من الناحية السياسية لان صاحبها هو اغا (سواربي) فيكون سيدهم الاعلى و الحالة هذه شيخ بارزان الذي عرف بلقب (شيخ النصارى) لانه يعامل النصارى و اتباعه

٤ - هي واحدة من القبائل الأثرية الأربعة الكبرى.

٥ - مهد البشرية ص ١٣٥.

المسلمين على قدم المساواة. و تسامحه هذا جعلهم ينعمون بالامن و الحصانة من الاضطهاد و النهب و السلب. وهم (اي النصارى) يقدمون عنه نفس الشهادة التي جاءت بحق (بريان

بورو). **Brian Borouangh King of Irland.**

«ملك ايرلندا في الازمنة الغابرة اذ قيل عنه - انه بامكانك ان تترك حليه ذهبية في دغل على مقربة من الطريق ضمن املاكه و انت آمن عليها تماما (٦)».

و يستطرد ويكرام «ابدى الشيخ استعداده لمرافقتنا (الى انكلترا) لكي يطلب شخصيا من رئيس اساقفة كانتربري فتح مدارس في قرأه (٧)» ... و يسره في الوقت نفسه ان يعتبر الانكليز اصدقاء شخصيين له (٨)» و يذكر ويكرام انتقال الشيخ الى الشؤون السياسية «... كانت الشؤون السياسية المحلية للريف الكردي مدار

حديثنا معظم الوقت و كان يعنى فقدان سيادة القانون في كل مكان. وهو في رايه من سوء حظ المسيحيين و المسلمين و استغرب من عجز بريطانيا و روسيا عن ادخال الاصلاح الى هذه البلاد و تساءل قائلاً - لقد ذهبتم (يقصد الانكليز) الى الهند و بقيتم هناك مع انهم لا يريدونكم؟ لماذا لا تاتون الى هذه البلاد فاهلها يريدون التعلم منكم... ولما سمع الشيخ اننا عائدون الى انكلترا بعد اشهر قليلة على الاغلب ابدى استعداده لمرافقتنا ليزور (الملك جورج) و يجلس معه للبحث في قضية (كردستان) و البت في امر استقلالها. ولم يكن في وسعنا مع الاسف الشديد ان نؤمله بشيء. لكن اقتراحه كان مخلصاً نابعاً من قلبه بلاشائبة.

لقد كان الشيخ مدركاً بان بريطانيا وهي بلا جدال اعظم و اقوى امبراطورية في العالم كانت تستطيع ان تملى ارادتها على الدولة العثمانية متى شاءت و كما فعلت في مواطن عدة فضلا عن ان بريطانيا و فرنسا و غيرها من الديمقراطيات الغربية بصرف النظر عن تطلعاتها الاستعمارية و شهوتها الى مناطق النفوذ في بلاد (الرجل المريض) كانتا تعتبران من حماة الاقليات العنصرية و المذهبية المضطهدة بسبب ذلك في الدولة العثمانية كما كانت عواصمها و مدنها ملجأ و ملاذاً لجميع الاحرار العثمانيين الهاربين من جوايسيس

٦ - المصدر نفسه ص ١٢٤.

٧ - المصدر نفسه ص ١٣٧.

٨ - المصدر نفسه ص ١٢٩ كان مؤلف كتاب (مهد البشرية) عضواً في البعثة الدينية التي ارسلها (رئيس اساقفة كانتربري) من انكلترا بناء على طلب من بطريرك الكنيسة الشرقية الآثورية المار شمعون للتحقيق في الطقوس و العقائد الكنسية التي تتبعها هذه الكنيسة التي كانت مجهولة عند طائفة الانكليكان (المذهب الرسمي في انكلترا) و هذا هو سر تواجد المؤلف في تلك الانحاء.

السلطان و سجونہ و من بینہم الوطنیون الاکراذ کما اسلفنا. (٩) لذلك كان شيخ بارزان
يطمع في تدخل احدى هذه الدول لمصلحة الشعب الكردي و تاييده في كفاحه من اجل
الحرية و الخلاص من نير الحكم العثماني - الا ان روسيا القيصرية كانت تحتل الدرجة
الاولى في تفكيره لقربها جغرافياً من كردستان. في حين تأتي بريطانيا وهي الدولة البحرية
البعيدة بالدرجة الثانية.

٩- كانت التهم الاصلية التي وجهها جمال باشا السفاح (والى سوريا ولبنان) لشهداء عالية و من ثم شفقهم هو
صلتهم بالقنصليتين الانكليزية والفرنسية ومراسلاتهم مع حكومتيهما لمساعدة الوطنيين العرب على الاستقلال والتحرر
وقد اكتشفت الوثائق التي ادينوا بمقتضاها عندما كبست القنصليتان على اثر اعلان تركيا الحرب على الحلفاء في الحرب
العالمية الاولى.

الفصل الثالثون

الغيوم تتجمع

عاد الشيخ عبدالسلام الى بارزان و اطلقت السلطة سراح السجناء الذين بقوا في قيد الحياة. (١) بما فيهم النسوة و الاطفال الذين عادوا من سجن الموصل. و تفرغ الشيخ الى مطلب الساعة وهو تنظيم الحياة الاقتصادية للمنطقة. كلف اعوانه بالاشراف على جباية زكاة المحاصيل وفق تعليمات الشريعة الاسلامية و ازال عن كاهل الفلاحين الاعباء التي كان الاغوات قد كلفوهم بها فلم يعد ثم سخرة ولا ضرائب. و امتد نفوذه فشمل منطقة واسعة من بهدينان من نهر الخارز الى (ده شتى زى) و النهروان حتى بيروخ الى نهر (موسكافه) و جميع (بياقه) و عمد الى وقف واردات التكية على الفقراء و عين (اسماعيل عمر زال) و (زبير چاربوتى) و (سليم گورگفای) مشرفين و وكلاء على القرى التي كان الاغوات يحكمونها كما عين (نعمان طه البيره كه پرى) فى (نزار).

و نشر العدل بين الناس و كان حساسا من هذه الجهة الى ابعد الحدود مدركا عاقبة الظلم يتبع فى تصريفه الامور مبدأ (اذا بلغتنى مظلمة ولم اعجل فى ازالتها كنت انا الظالم). و اصبح شخصه رمز ردع لكل من تسول له نفسه الاخلال بالامن او الاعتداء. و لقب بابى الفقراء لتفقدته احوالهم و قضاء حوائجهم. الا ان الزمن لم يتح له الاستمرار فى عملية الاصلاح الجذرية التي بداها وهي ثورة اجتماعية كاملة الابعاد فى بلاد كردستان فقد اغتيل (ناظم پاشا) ناظر الحربية بمؤامرة دبرها رجال حزب الاتحاد و الترقى و لم يفقد الشيخ به نصيرا فحسب بل ان اغتياله فى العام ١٩٠٢ كان يعنى عودة خصومه الالاء (الاتحاديين). الى الحكم. عادوا و استأنفوا تطبيق سياستهم الاولى باستخدام الارهاب و الشدة فى ضرب الخصوم و معالجة الامور و لاسيما قمع اصوات الاقليات المضطهدة. فعزلوا (اسعد پاشا الدرزى) صديق الشيخ الحميم عن ولاية الموصل و عينوا بدله (سليمان نظيف بگ) احد اعضاء حزبهم المقربين. «... تمكن الاتحاديون من اسقاط الوزارة الائتلافية و تسلموا مقاليد الحكم للمرة الثانية و اسندوا رئاسة الوزارة للفريق محمود شوكت پاشا... و كان فى الموصل اثناء هذه الحوادث (صفوة بگ) القائمقام العسكري وهو من رجال حزب الحرية و الائتلاف. فاحتفى على اثر ذلك فجأة من المدينة و بعد مدة قتل محمود شوكت پاشا رئيس

١- توفى عدد كبير من المعتقلين فى السجن بسبب سوء المعاملة و الامل.

الوزراء. فالصق الاتحاديون هذه الجريمة بخصومهم من حزب الحرية و الائتلاف و شاع
الخبر بان القاتل هو صفوة بگ) نفسه و انه قد التجأ الى الشيخ عبدالسلام (٢)“
لا احد يدري هل ان يد (صفوة بگ) هي التي اطلقت الرصاص على (رئيس الوزراء)
فأردته؟

ولكن مسألة لجوء المتهم بالقتل الى الشيخ عبدالسلام هي حقيقة ثابتة. ف فيما كان
الراعي (لثروك) يرعى قطيعه في جهات (به روز) انتبه الى نباح كلابه الفجائي فدنا منها
يستطلع فادا به وجها لوجه امام (صفوة بگ) الذي كان قد عبر نهر دجلة متخفياً و قطع هذه
المسافة الطويلة سيرا على القدم حتى انتهى الى منطقة الشيخ. زجر الراعي كلابه فكفت
عن النباح و كشف صفوة بگ شخصيته للراعي و حذره من اذاعة النبا و امره ان يتوجه الى
الشيخ عبدالسلام و يخبره بوجوده. فاسرع الراعي الى بارزان بعد ان اوكد للطريد الهارب
نارا يستدفيء عليها. و ما ان وصل النبا الشيخ حتى بادر الى استقدامه و أخليت له غرفة و
تقرر ان يكتنم سره حتى عن اهل قرية بارزان نفسها. و ظل (صفوة بگ) في دار الشيخ يلقي
كل تقدير و رعاية و كان الشيخ يديم اللقاء به خلال فترة الاشهر الثلاثة التي أقامها هناك
فيحدثه في قضايا الساعة و مشاكل الحكم في تركيا. و يستفهم منه عن التيارات السياسية
المتصارعة و مستقبل علاقات بارزان بالحكومة الجديدة و موقف الائتلافيين في الميدان
السياسي حالياً الخ ... وقد استخلص الشيخ من تلك الاحاديث ان الاتحاديين لن يدعوه في
راحة و انهم سيخلقون ما امكنهم من المتاعب اذ كانوا قد وضعوه في قائمة اعدائهم من
المبدء. و قد تحقق ذلك باسرع مما توقع.

كانت القوات الروسية مرابطة في شمال ايران و كان العداء التقليدي بين الدولتين
يضاعف من مخاوف الاتراك على الحدود لاسيما بعد ان وقفت الدولة العثمانية على
المحاولات التي تبذلها روسيا القيصرية للتقرب من شعوب الشرق الاوسط الداخلة ضمن
الامبراطورية العثمانية. كان الشيخ بدوره يدرك هدف الحكومة العثمانية من اثاره النعرة
الدينية في نفوس الشعوب الاسلامية الخاضعة لها بوصفه أضمن وسيلة لقطع الطريق على
روسيا و بريطانيا الى تلك الشعوب. فالدين عند الاتراك كما يقول (ويگرام) يعنى حكم
الترك لا غير.

في الواقع و كما بينا آنفا كان المجتمع الكردي يشهد تمخضا سياسيا واضحا قبيل
الحرب العالمية الاولى و كان يتطلع بانظاره الى الخارج للمساعدة في كفاحه للتخلص من
نير الحكم العثماني. فمثلا هرب احد زعماء الكرد الوطنيين وهو (الشيخ عبد القادر النهري)

٢. الضحايا الثلاث (فصل عبدالسلام البارزاني).

من استنبول الى مدينة نوغوروسيك في روسيا عندما شعر بنية السلطة في القبض عليه. (٣) و كان الشيخ عبدالسلام قد اوصاه عندما تم لقاء بينهما ان يعمل على تنمية العلاقات مع الروس لا اعتقاده بحسن نواياهم. (٤) وقد علمت السلطات التركية بامر هذا التوجيه. اجل، كان الشيخ يرغب فعلاً في الاستعانة باحدى الدولتين ولم تكن رغبته هذه بالخفية عن السلطة. على ان الشيخ لم يتجاوز حدود تلك الرغبة اعنى لم يتصل لا بروسيا ولا ببريطانيا كما اتهم فيما بعد من قبل السلطات العثمانية.

في اوائل العام ١٩١٣ طلب والى الموصل الجديد سليمان نظيف من الشيخ عبدالسلام تسليم العقيد صفوة بك (كان هذا والى وهو احد اقطاب الاتحاديين من اشد المتعصبين للطورانية مع انه كردى قح). فقد اكتشفت استخبارات حزب الاتحاد والترقى مخبأه ولم يعد وجوده عند الشيخ سراً و رفعاً للحرج و محافظة على حياة اللاجئين رتب ان يغادر صفوة بك بارزان و يقيم عند السيد طه النهري فتركها بحراسة كافية وفي لحظات الوداع الاخيرة تواعد الصديقان على اللقاء عندما تنجلي الامور و كان آخر ما قاله هذا الرجل الشهم للشيخ - لا تعتمد على حسن نية المسؤولين الاتراك فهم مجردون عن الضمير ولا امان يرجى منهم ولا يفهمون الاخلاص و الخدمة ولا يقدر ونهما. اذهب الى الروس و اعقد اتفاقاً مع السيد طه النهري و عبدالرزاق بك ... هذه المرة لن تنجو منهم و سيعدمونك الحياة ان ظفروا بك فدافع عن نفسك حتى الرمق الاخير وان اعجزك ذلك فاهرب الى روسيا» ثم افترقا.

كانت رسالة (سليمان نظيف) للشيخ بمثابة انذار بتجريد حملة عليه في حالة عدم تسليمه (صفوة بك) فقد وصف ايواه له بانه ايواء عدو لدود للدولة وقاتل رئيس وزرائها) كما اتهم الشيخ بالاتصال بدولة اجنبية و طلبه المساعدة العسكرية منها لمحاربة الدولة العثمانية. ان سليمان نظيف كان ينقم على الشيخ بصورة خاصة لعلاقته الحميمة بحزب الحرية و الائتلاف.

عند هذا اغتنم اعداء الشيخ فرصتهم فزادوا من تحريض والى ضده و اشتد والى في ضغطه على الشيخ بتسليم (صفوة بك). على ان الشيخ لم يكتف بانكار وجود المطلوب عنده و انما رفض القدوم الى الموصل فكان هذا ايذاناً بتجريد الحملة العسكرية الثانية ضد بارزان.

أصدقاء الشيخ وقت المحنة

٣- هو عم السيد طه النهري واحد اقطاب حركة التحرر الكردية.

٤- وما بعده انظر مجلة (شمس كردستان) مقالة العائلة البارزانية بقلم ف. نيكيكين. ص ٣١

حاول الشيخ سبرغور اصدقائه و انصاره ليتأكد من مدى اخلاصهم و تعاونهم وقت الشدة. و نذكر نموذجاً واحداً لما تلقى من ردود مخيبة للآمال. فقد ارسل (شريف ملا حسن) احد اعوانه الى (قادر عثمان آغا) يطلب منه العون الا ان هذا الآغا الذي سبق ان علم بموقف الحكومة من الشيخ. اسرع بمغادرة القرية الى الموصل قبل وصول الرسول كيلا يواجهه و يقع في احراج و مما يذكر ان عثمان آغا والد (قادر) هذا كان مديناً بحياته للشيخ فقد حاصرته قوات الهركي حصاراً شديداً في عهد (الشيخ محمد البارزاني) و كادت تظفر به و تورده حتفه عندما لبي الشيخ محمد استنجاده فارسل لانقاذه قائده (فقي عبد الرحمن) الذي اسرع اليه مغامراً بحياته و حياة رفاقة فانقذه من موت محقق (٥)

من هذا و غيره من المحاولات الفاشلة ادرك الشيخ الحقيقة المرة. فوضع كل ثقته و آماله على انصاره و مريديه و حدهم.

٥ - فاجأتهم عاصفة ثلجية عنيفة جدا فظلوا سبيلهم و تاهوا بسبب كثافة الثلج المتساقط و را على الهلاك انجمادا فاتفقوا ان يطلقوا جميعا نيران بنادقهم دفعة واحدة و تلك شارة الخطر الماحق أيام تساقط الثلوج في كردستان مما ادى الى ان يسرع اهل قرية قريبة برجالها لنجدتهم. وقد واصلوا سيرهم حتى وصلوا وارغموا بيروت آغا الهركي على رفع الحصار عن (عثمان آغا).

الفصل الحادى والثلاثون

تجدد القتال

استنفر سليمان نظيف القبائل الكردية من المرتزقة السورجيين و الزيباريين و الكوران ثم اشرك معهم فيما بعد قبائل پشدر و بالك من انحاء رواندوز و عشائر النبروه و الريكان و الدوسكى من انحاء العمادية فكان على الشيخ ان يواجه ثلاثة ارتال اولهما محور العمادية باتجاه بارزان و ثانيها انطلاقاً من قاعدته عقرة باتجاه جبل پيرس و ثالثها و قاعدته رواندوز منطلقاً الى ميرگه سور.

كانت الخطة العسكرية تهدف الى جر معظم قوات الشيخ و تركيزها فى ميرگه سور لاضعاف الدفاع عن جبهة پيرس لتسهيل واجب القوات الزاحفة من عقرة. كما ان محور العمادية - بارزان كان سيشتغل قوات الشيخ فيسمرها ولا يدعها تتحرك لمعونة القوات البارزانية الاخرى ولما تاكدت الانباء بان الجيش التركى و المرتزقة قد بدؤا يتحركون نحو ميرگه سور وان الوحدات النظامية طوت خيامها و تهيأت للتقدم دفع الشيخ نحو هذا الخط بنخبة من رجاله يقودهم مقاتلون مجربون عرف من بينهم (مصطفى هه وليرى) (١) تقرر الهجوم على المعسكر و التركيز على مواقع المدفعية و فعلا بوغت بهجوم صاعق ولم تصمد القوات الحكومية ولاذت بالفرار و استولى البارزانيون على مدافعها و فيما كان (مصطفى هه وليرى) يحاول نقل احد المدافع اصابته رصاصة فخر صريع فوق فوهته. و قامت قوة بارزانية اخرى بقطع طريق الانسحاب على الجيش و المرتزقة فانكشفوا للعدو و جوبهوا بنار حامية فلقى عدد منهم مصرعه و استعاد الجنود و المرتزقة ثقتهم و ثبتوا عندما وجدوا طريق الانسحاب مقفلة فى وجوههم و تمكنوا من افضال عملية التطويق ثم تحولوا الى الهجوم و ازاحوا قوات بارزان عن مواقعها و اعادوا سيطرتهم على المعسكر بعد ان وصلتهم نجات كبيرة. فاضطرت قوات الشيخ للارتداد الى الخلف قليلا و احتدمت المعركة. و هنا وصلت رسالة عاجلة من الشيخ يامر فيها هذه القوات بالعودة الى خط پيرس -

١ - هه ولير هو الاسم الكردى لمدينة اربيل و بذلك يقرأ الاسم (مصطفى الاربيلى) و كان جندياً هارباً التحق بالشيخ و اخلص له و اظهر شجاعة و حنكة بحيث سلم قيادة.

بارزان لان طلائع الجيش و المرتزقة قد هاجمته باعداد غفيرة فانسحبت معظم القوة من ميرگه سور بعد ان اوقعت بالجيش التركي خسائر جسيمة و كانت على قاب قوس اوادنى من النصر.

معركة بله

شهد محور پيرس - بارزان اوسع تجمع للقوى مما لا يمكن مقارنته بالقوات التي تواجهه من البارزانيين.

. ان سعة الرقعة التي كانت تتحرك فيها هذه القوات جعلت الدفاع عن جبل پيرس متعذراً فاخلى الجبل و انحدرت القوات المهاجمة من سفحه نزولاً الى بيره كه پره. فاصبحت (بله) مركز خط الدفاع الثانى لقوات بارزان فالنهر هنا وفى هذا الشهر (اذار) من السنة ١٩١٤ كان بمياهه الغزيرة السريعة يشكل حاجزا طبيعياً.

و سحبت المدافع الى ضفته الغربية و بدأت تقصف ماوراء ضفته الاخرى. و كانت ارضا مستوية ليس فيها عارض طبيعى يذكر ولا تصلح للدفاع نهاراً. وقد جرى القتال ليلاً بعد ان عبرت القوات الحكومية النهر فوق عبارات اقامها النجارون الذين جىء بهم من الموصل خصيصاً فوق مجرى النهر على طول ستة كيلومترات و ساندت المدفعية حركة العبور و حماية الجنود و استخدمت ثلاثة عبارات متحركة لنقل المدفعية. دخلت القوات الحكومية (بله ژيرى) بعد ان اقتحمها المرتزقة تحت حماية المدفعية و النيران الكثيفة

اما قوات الشيخ التي اتخذت مواقع مستورة فى الضواحي فقد انتظرت حلول الظلام ثم هاجمت مواقع المرتزقة و دحرتهم و طردتهم من المواقع التي احتلوها وفى تلك الاثناء و بينما كان البارزانيون يستعيدون المواقع واحداً اثر الاخر نادى بينهم مناد بان بعض المرتزقة قد اختبأوا فى زريبة من ميدان الاشتباك فبادر فريق منهم الى اشعال النار فيها فتصاعد لهب عظيم ارشد اليهم العدو و كشف له موقعهم فامطروا البارزانيين بوابل من النيران من كل صوب و سقط (حسين بارزاني) صريعاً فجر والده جثته الى حقل قمح مجاور و عاد فوراً ليشارك فى القتال و يقتل هو الآخر. و قتل ايضا كل من (على) و (امين) ابى القائد البطل (فقى عبد الرحمن) و بلغ عدد الضحايا تسعة وهو يساوى عدد القتلى الذين سقطوا فى جبهة قيرگه سور.

قلنا تدفقت القوات الحكومية الى الضفة الشرقية من الزاب تحت جنح الظلام و بحماية
نيران المدفعية . ولم يكن للبارزانيين طاقة لمواجهة هذه القوات المتفوقة بغير حساب و
ايقنوا بعدم جدوى المقاومة رغم انهم اوقعوا بالمرتزقة خسائر كبيرة و جرح عدد من اغوات
الزيبار وقد جرف النهر جثثاً عديدة بحيث تعذر احصاؤها.

ان روح التضحية و الحماسة فى القتال اللتان تحلى بهما البارزانيون فى بداية المعركة
رجالاً و نساء و تصميمهم على القتال حتى النفس الاخير الهمت (ملا محمود البارزاني)
الشيخ الهرم و المقاتل الشجاع قصيدة من الشعر مازال البارزانيون يتغنون بها. قال مخاطباً
زوجه (زهري).

زرى زرى زرى

زه رى زه رى زه رى

هيا لنطرد الجنود من بيراكه پره

تو بقرى نه زبخه نجه رى

انت بالفاس و انا بالخنجر.

عه سكه رى لبيراكه پراكه نه ده رى

لم تجد هذه الاستماتة فتيلاً. فقد وصلت المدافعين اوامر الشيخ التى تقضى باخلاء
القرية فانسحبوا منها وهم آسفون اذ كانوا ينوون القتال فيها عن آخرهم.

و هرب اهل القرى الى جبل شيرين و تراجعت قوات بارزان و زحف الوف من الجنود و
المرتزقة نحو بارزان فدخلوها و اشعلوا النار فى بيوتها و احوالها انقراضاً.

بقيت القوات المواجهة لمحور العمادية - بارزان صامدة فى مكانها تحتل مواقع دفاعية

منيعه و على رأسها (قادر سبرى) الذى وصله نبا يفيد بان الشيخ قد غادر (به روز) و ان

بارزان قد وقعت فى قبضة القوات الحكومية كما جاءه نبا آخر يفيد بان الشيخ قد ترك

الوطن و عبر الحدود الى ايران فلم ير جدوى من مواصلة الدفاع خصوصاً و ان الجيش

التركى و المرتزقة كانوا قد وصلوا الى (پراچلكي) عندئذ لم يكن منه الا و امر بالانسحاب

و لم يكن لديه الا منفذ واحد وهو عبور النهر للتخلص من حلقة الحصار التى احكمت حوله.

و انتهز حلول الليل و باشر فى العبور على ضوء القمر الا انه فوجيء بنار كثيفة من مواقع

العدو القريبة جدا شارك فيها فضلاً عن الجيش و المرتزقة اولئك الذين كانوا اصدقاء

(قادر سبرى) بالامس يتمسحون باذياله و يلتمسون رضاه. و سقط عشرة من رجاله صرعى

بينهم (احمد شيخيل) و (حسو) من اقرباء (قادر) كما جرح (عبد الله) شقيق قادر و اصيب

قادر نفسه. وواصل الآخرون عبور النهر ثم تفرقوا. و كاد التيار يجرف الجريح (عبد الله)

لولا ان سحبه (ابراهيم قادر) فى آخر لحظة. و سحب الجرحى الخائروا القوى انفسهم

متوارين فى احراش الدغل الجبلى و عشر احد الرعاة على (قادر سبرى) و اخيه (عبد الله)

فاعلم (الشيخ نوري هلوري) الذي ارسل بغلين مع عدد من رجاله فحملوها الى قريته (هلورا) سرا و قام الشيخ بنفسه بالعناية بالجريحين. و رأى ان يرسل عبدالله الى قرية (تاتكي) الشيروانية ليلقى المزيد من العناية الطبية على يد ممارسيها القرويين لكنه توفي و دفن هناك.

و بقي (قادر سيدي) في رعاية (الشيخ نوري) اياماً. في صباح اليوم الذي تلا انسحاب قوة (قادر) و عبورها النهر عبرت القوات الحكومية الى الضفة الاخرى و عثرت على القتلى فقطعت اذانهم. و احتز راس القتل (ابراهيم سه قره ي) و ارسل الى قيادة القوات التركية. اما مصير (قادر سيدي) فقد كان معلقا بشعرة الا انه نجا باعجوبة فقد علم (قادر عثمان آغا) الذي مر ذكره انفا بوجوده في (هلورا) فاراد ان يحسن في عين السلطة بتقديمه راس (قادر سيدي) فجهز قوة احاطت بالقرية لكن الشيخ نوري حمل (قادر) على التزي بزي النساء فلم يعثر عليه قادر عثمان آغا و باءت محاولته بالفشل. بعد هذا تطوع (فارس آغا الزيباري بحماية) قادر سيدي و هيا له من اوصله اليه سالماً هو و ابنه ابراهيم و مكثا في قريته تحتى شفى قادر تماماً فخير بالبقاء او الرحيل فأثر الالتحاق بالشيخ عبدالسلام في ايران و تم له ذلك.

الفصل الثاني والثلاثون النزوح الى ايران

عدل الشيخ (عبد السلام) عن المقاومة حتى النفس الاخير - في آخر لحظة و امر بالجلء الفورى عن المنطقة و الاتجاه الى الحدود الايرانية . وفى اوائل نيسان بديء بالنزوح و خرج (الشيخ) من بارزان متوجهاً الى قرية (بيبي) و منها الى (زرارا) حيث اقيم معبر فوق النهر لتسهيل عبور النازحين من النساء و الشيوخ و الاطفال . اما القوات التى كانت مرابطة امام القوات الحكومية فقد انسحبت وفق اوامر الشيخ الى سفوح جبل شيرين . لقد رافق عملية النزوح هذه مواقف اليمه يذكرها ابناء النازحين الباقين على قيد الحياة و القلائل الذين شاركوا فيها وقد بلغوا من الكبر عتيا - مازالوا يذكرون حوادثها ووقائعها بالم (١) و حسرة وفى اليوم التالى الذى عقب صدور الامر للقوات البارزانية بالانسحاب و وصلت قرية (بيبي) وقد انهكها القتال و الجوع و السهر . و كانت الماشية السائبة تعترض سبيلهم مبعثرة فى كل مكان لا تجد من يرعاها او يدعى بمالكيتها . فالجميع كانوا فى عجلة من امرهم خوف ان يدركهم المرتزقة و يوقعوا بهم وقد باعتهم التعديل المفاجيء الذى اتخذه الشيخ البارزاني و الغاؤه قراره السابق . بالاستماته فى الدفاع حتى النفس الاخير .

لا شك انه اشفق على الارواح الكثيرة التى ستفقددها بلاده دون فائدة نتيجة تطبيق قراره الاول . على ان انصاره لم يكونوا قد استعدوا لهذه الحالة الطارئة ولم يتأهبوا للقيام برحلة شاقة طويلة كالتزود بالاقوات و حمل ما يمكن حمله من المتاع و اخفاء ما يتيسر اخفائه عن المحتلين . لذلك فقد غادروا منازلهم و التحقوا بالرتل المتوجه نحو الحدود و ليس عليهم غير ثيابهم و ما تستطيع الايدي حمله . ولم يكن معهم من الزاد ما يكفيهم ليومهم الواحد . لذلك حفلت المسيرة المتوجهة الى ايران بكل مظاهر البؤس و الشقاء التى تكتنف مسيرات المدنيين الهاربين من جحيم الحرب وويلاتها .

و عمد الشيخ الى تنظيم الحماية للرتل النازح فوضع فى المؤخرة (سعيدولى بگ) مع رجاله و وضع فى المقدمة خاله (فاخر) و (نورى) مع مقاتلين و ابقى العزل من النساء و

١ - روى لنا احد رجال سعيدولى بگ الباقين فى قيد الحياة انه اثناء ما كانوا يجتازون احد شعاب الجبل وجدوا امرأة بين النازحين تحمل رضيعاً . تقف بين حين و آخر لتتلفت الى الوراء و تتفحص اوجه رجال القوات العائدة من الجبهة . كانت تنتظر زوجها وولدها اللذين هما من ضمن تلك القوة . ولما لم تعثر عليهما اياقت بهلاكهما فانخرطت بالبكاء .

الأطفال و كبار السن فى الوسط.

و مع ان الجوع كان ينهش بطونهم فاوامر الشيخ واجبة الطاعة وهى تهدد بالعقاب كل من يعيث بالمزروعات المنتشرة على جانبى خط السير وقد وضع حرسا على الجانبين للقضاء على فكرة تراودهم باقتحامها. ولم يكن امامهم بعد هذا الا ان يملأوا بطونهم بالحشائش و الانبثة الجبلية ولاسيما ساق نبات (الراوند) الذى يكثر نموه فى الجبال فى هذا الوقت من السنة.

بلغ الرتل مشارف قرية (بابكى) و حانت من الشيخ التفاتة فرأى النازحين شابين يافعين من اهالى قرية (راس العين) القريبة من عقرة و كان يعرفهما فناداهما و امرهما بالعودة الى ابيهما العاجز للعناية به فاجابا انهما يفضلان الموت معه وواصلتا السير . (٢)

بعد ان خلف الرتل قرية (بابكى) صادفهم احد اصدقاء الشيخ فعمد الى ذبح عدد من اغنامه و هيا لهم طعاما. و علم (صالح مراد خان البرادوستى) بمحض الصدفة بوجود الرتل قريبا منه فاسرع و حشد قوة قوامها مائة مسلح و هاجم احد جوانب الرتل و تمكن من عزل تسعة من رجال (فق بابكر) و تطويقهم الا ان (سعيد ولى بگ) و (خوشوى سيلكى) اسرعا الى نجدتهم فهرب (صالح مراد خان) و فاتته فرصة تقديم الدليل على ولائه للدولة العثمانية. و نزل الرتل فى قرية (گيزاقلې) و حواليتها. و فى احد منازلها وجد اوائل الأخلين رجلاً مستلقيا على فراش تبينوا فيه شخص (عبدالله عقراوى) الذى امر الشيخ بعقابه، لانه أقدم على ذبح ثور يعود لعجوز من اهل القرية.

و على اثر تركهم هذه القرية ثم (لو لان) بعدها صادفهم برد شديد فى منطقة (الگادر) لاعهد لهم به من قبل فى مثل هذا الفصل السنة و اضطروا الى الزحف فوق أرض تكسوها طبقة من الجليد مجتازين (بن زيرته) الى (سنگان). و مكثوا فيها حوالى خمسة ايام و بعدها توجهوا الى (اشنويه) ثم الى (ميرگه وه ر) (٣) وسط عاصفة ثلجية و مطر شديد.

كان (السيد طه النهري) غائبا عن قريته عند وصول الرتل فتاب عنه فى استقباله و كيله (مى هرکى) فزود افراده المرهقين بالطعام و الكساء و رتب امر استقرارهم فى منطقة (ميرگه وه ر) و اسكن اسرة الشيخ فى (رازانى) قرية السيد طه. و كان شهر نيسان ١٩١٤ قد اشرف على الختام عندما استقر النازحون فى ديار الغربية.

٢ - هذان الاخوان هما طاهر و زبير راس العين اولهما توفى فى ١٩٧١ و الثانى مازال حيا برزق (حتى كتابة الاسطر ١٩٧٢) و منهما استقينتا معظم المعلومات و التفاصيل التى يجدها القارىء فى هذا الفصل.

٣ - عندما هم بعضهم بايقاد النار فى منزل مضيفه عجوز فقيرة الحال للتدفئة مستخدمين القليل من الاحطاب التى جمعتها فى ايام الصيف نها هم الشيخ و زجرهم. لصعوبة التعويض عنه فى ذلك الفصل من السنة.

الفصل الثالث والثلاثون

الشيخ في ميدان السياسة الدولية

منذ ان فقد الشعب الكردي كيانه الاستقلالي وقسمت بلاده بين الدولتين الكبيرين في الشرق الاوسط بين السلطنة العثمانية و المملكة الشاهنشاهية الايرانية لم يوجد خط حدود واضح المعالم بين الدولتين في كردستان ولم تفلح اى منهما فى اى وقت من الاوقات فى ضبط تلك الحدود امام الافراد او المجموعات القبائلية الكردية و السيطرة على انتقالها من اراضى تلك الدولة الى هذه و بالعكس. وقد كان لهذا (مع انه جزء من ماساة هذا الشعب) اثره الايجابى فى محافظة الشعب الكردي على خصائصه القومية و علاقاته القبلية رغم خضوعه لدولتين. لقد ضاعت كل المحاولات التى بذلها رجال حكم الدولتين - منذ احتلال السلطان مراد الرابع العراق بما فيه منطقة بهدينان و الجزء الغربى من صوران الكرديتين - فى الوصول الى اتفاق على تلك الحدود منذ محاولة العام (١) ١٦٣٩ حتى المحاولة الاخيرة التى تمخضت بلجنة تخطيط الحدود الرباعية (الايرانية - التركية - البريطانية - الروسية) التى باشرت اعمالها وفق بروتوكول موقع من قبل الدولتين الا ان الحرب العالمية الاولى فاجاتها ولم تكمل الا قليلا من الجزء الجنوبي للحدود.

لهذا كان لفظ (الحدود) بالنسبة الى القبائل الكردية مصطلحاً ان لم يكن غير مفهوم فهو بالتأكيد غير معترف به فى ذلك الحين و على هذا الاساس اختار الشيخ النزوح الى ايران و العيش بين ابناء جلدته دون ان يخشى تعقيب القوات التركية التى لا تجرء على اقتحام تلك الحدود و تعقبه مهما كانت تلك الحدود مائة او موهومة. فضلا عن هذا فان انتقال الشيخ عبدالسلام الى ايران يعنى اقترابه من الروس. فقد انتهزت القوات الروسية فى القفقاس ضعف حكومة ايران و بسطوا نفوذهم على شمال اراضى (٢) البلاد و بضمنها تبريز منذ اذار ١٩١٤. لقد كان الشيخ ينوى الاتصال بهم و الافادة من الوضع الدولى لا قناعهم بمساعدته

١ - فى الواقع كانت معاهدة ١٦٣٩ (عقدت فى ايار) المعروفة بمعاهدة (زهاب . زهاب) التى صدقها كل من الشاه صفى بهادر و السلطان مراد الرابع بمثابة معاهدة صلح لانها اقتصرت على بيان المدن و المناطق دون التحديد. وقد تلت ذلك معاهدة العام ١٧٢٧ و ١٧٣٢ و ١٧٣٦ و ١٧٤٦ ثم معاهدة ارضروم الاولى ١٨٢٣ و معاهدة ارضروم الثانية ١٨٤٧ و بروتكول الاستانه ١٩١٣ و بروتكول تهران ١٩١٢ دون نتيجة طبعاً.

٢ - قام شجاع الدولة بمحاصرة (تبريز) تعقيباً للوطنيين الايرانيين فاتخذ الروس من ذلك ذريعة و قصفوا مزار الامام الرضا فى المدينة و حكموا قبضتهم على الاقليم كله و ظلوا يحتلونه الى ما بعد الحرب العامة الاولى.

عسكريا و معنويا فيما انتواه.

في آب ١٩٠٧ وقعت روسيا و بريطانيا معاهدة حلف دفاعي هجومي و بذلك انتهت بريطانيا خلافها السياسي القديم مع روسيا القيصرية حول الموقف الذي ستتخذه الدولتان ازاء الامبراطورية العثمانية (الرجل المريض). فقد كانت سياسة بريطانيا الخارجية قبلا تقضي بالحد من اطماع روسيا في الامبراطورية (٣) العثمانية و ايقاف اية محاولة لاقتطاع روسيا اجزاء منها الا ان ظهور المانيا دولة عسكرية معظمة من الطراز الاول و دخولها ميدان السباق الاستعماري و النفوذ الكبير الذي اخذت تتمتع به هذه الدولة في اوساط الحكم العثماني و لاسيما في ايام الاتحاديين ذلك النفوذ الذي تكلم بفوزها لاحدى شركاتها بامتياز مد خطوط سكك الحديد في تركيا و زيارة الامبراطور قلهلم الثاني لفلسطين و دمشق و اعجاب اقطاب الاتحاديين و زعمائهم العسكريين بالعسكرية الالمانية و محاولتهم السير في ركاب تلك العسكرية و الاقتداء بها. ثم تزعم روسيا لحركة التحرر السلافية في البلقان التي ادت الى خروج جميع شعوب البلقان من يد العثمانيين. و احتلال ايطاليا لطرابلس و بنغازي في ليبيا ثم السيطرة على كل البلاد. كل ذلك ادى الى التكهّن الصحيح بان الامبراطورية العثمانية اخذت تدنو بقدم ثابتة نحو ساعة الاحتضار.

هذا ما حمل الشيخ عبد السلام على التفكير بضرورة الاتصال العاجل بالروس. كان العالم على شفا الحرب الكبرى و مصير تركيا و امبراطوريتها لم يعد خافيا عند المطلعين على دقائق الامور مهما كانت نتيجة تلك الحرب. لقد تحرك الارمن و العرب و اخذوا يطرقون ابواب الدول الكبرى يعرضون قضايا شعوبهم و يبحثون في مصائرها و يطلبون المساعدة منها ولم يكن ثم بد من ان تبرز بين الكرد شخصية وطنية معروفة لتبسط قضية هذا الشعب و مستقبله على مسرح السياسة العالمية. ولم يكن ثم شخص افضل و اليق من الشيخ عبد السلام للشروع بهذا السبيل في ذلك الوقت فالذات فالي جانب مركزه الديني و الولاء العميق الذي يكنه اتباعه له و الاحترام الذي يتمتع به من سكان المنطقة كان الزعيم الكردي الوحيد الذي تحدى السلطة العثمانية في القرن العشرين و خاض ضدها المعارك فهو خير من يمثل الشعب الكردي في تقديم قضية هذا الشعب الى محكمة الضمير العالمي. وربما كان هذا من اسباب عدوله عن قرار المقاومة حتى النفس الاخير. و كخطوة اولى ارتأى ان آراء زعماء كرد اركرد هنا و لاسيما اولئك الذين قد يكون في وسعهم تسهيل مهمة الاتصال و افضى بذلك لـ (اسمايل آغا شكاك) المعروف بلقبه (سمكو). تم

٣- كان النزاع بين الدولتين بالدرجة الاولى على مناطق النفوذ و لذلك تدخلت بريطانيا و فرنسا مثلا لصالح العثمانيين في حرب القرم ١٨٥٤ - ١٨٥٦ و ارسلنا حملة عسكرية احتلنا مع الجيش العثماني مرتفعات شبه جزيرة القرم على البحر الاسود. وقد كان من الطبيعي ان تتحد وجهة نظر الدولتين بعد ظهور المانيا على مسرح السياسة العالمية منافسا لا يمكن التقليل من شأنه.

الاتصال بعد فترة فطلب المسؤولون الروس حضوره الى (تفليس) مقر الفرانديق نائب القيصر وقائد جيوش الجنوب. فتوجه اليها منفرداً وبصورة سرية اذ لم يشعر اتباعه الا وهو ليس بينهم. لقد غاب الشيخ زهاء اربعين يوماً ثم عاد.

لا يعرف بالضبط مضمون المباحثات التي اجراها الشيخ مع الروس اذ لم يرافقه احد من اتباعه ولم يفض هو نفسه لاحد بمادار بينه وبين المسؤولين الروس. ولم يعرف من هم اولئك الذين رافقوه من غير اتباعه الى هناك. ولا مع من اجري المباحثات. كل هذه ستبقى سرّاً خفياً لا يقوى التاريخ على كشفه باية حال الا ان (ف. نيكيتين) يذكر ماياتي بصدد تلك المباحثات «نصحت السلطات الروسية الشيخ بان من الافضل له ان يختفي لانه ليس من صالحهم (اي صالح الروس) معاداة الاتراك. في هذا الظرف. و هذا من مقتضيات السياسة. و ان عليه ان ينتظر شهرين او ثلاثة. فاذا تحسنت العلاقة مع الاتراك فانهم سيتوسطون للعفو عنه. اما اذا ساءت فانهم سيزودونه بالقوات والسلاح ويعيدونه الى بارزان. ولم يعجب (٤) الشيخ هذا الموقف ولا هذه النصيحة الا انه لم يظهر احساسه».

وصل الشيخ عبدالسلام الى تفليس في شهر آب ١٩١٤ على الارجح وعاد في شهر ايلول التالي. عاد الشيخ عبدالسلام ولم يشعر اتباعه الا وهو بينهم وذلك قبيل اندلاع الحرب العالمية الاولى وكان قبل وصوله قد ارسل من ينبيء اعوانه بعودته وكان الجميع يترقبون تلك العودة تحذوهم الامال الجسام. في تلك الاثناء اعلن والي (وان) جودت بگ عن جايزة نقدية كبيرة لمن ياتيه بالشيخ عبد السلام حيا او ميتاً.

كان من اولى الاعمال التي قام بها الشيخ بعد عودته ان كتب رسالتين الى اعوانه الذين ارسلهم الى بارزان قبل سفره الى تفليس حملهما على عجل خمسة من الساعة الى (هوستان) كانت الرسالة الاولى موجهة الى (قادر سيرى) والثانية الى (خوشوى سيلكى) ويروى لنا بعض الذين كانوا موجودين اثناء تسليم الرسالتين ان (فق بابكر) خرج من لدن الشيخ والرسالتان في يده حيث الساعة الخمسة يقفون على اهبة وقال لهم وهو يدفع اليهم بهما «يا امر الشيخ ان تسلموا هاتين الرسالتين الى كل من خوشوى وقادر يداً بيد واحرصوا عليهما من الضياع او الوقوع في يد احد حرصكم على حياتكم».

بعد بضعة ايام غادر الشيخ قريته قاصداً اسماعيل اغا (سمكو) وبقي لديه فترة من الزمن يتبادلان الراى حول خطط المستقبل واعقب ذلك زيارات عديدة لكثير من زعماء

٤ - من مقال «العائلة البارزانية» المنشور في مجلة شمس كردستان ترجمة الدكتور كاوس قفطان. (نقول ان هذا الموقف الروسي البارز من الكرد يشبه الى حد ما موقفهم اثناء الحرب العالمية الاولى من بطريك الانثوريين (مار شمعون بنيامين) عندما طلب منه العون العسكري فقد قرر كما يذكر (ويگرام) ان «يقوم بمحاولة اخيرة لنيل المعونة منهم الا ان الخيبة كانت في انتظاره فقد اوضح قواد روس محليون تعذر اى معونة ولم يقدموا للبطريك شيئاً خلا النصيحة البائسة المذلة وهي ان من الخير له البقاء عندهم امنا مادام افلح في النجاة.

الکرد في المنطقة وذوى النفوذ فيها وانا لنفهم من سعة تلك الاتصالات ان الشيخ كان قد استقر رايه بعد عودته من (تفليس) ان ينتهج سبيلاً يشبه الى حد ما السبيل التي سلكها بعد عودته الى باسيفيا وقتاله الجيش التركي في (سهري باز). لقد تعدت اتصالاته اسماعيل اغا الى (سليمان خان) رئيس عشائر الزرزا وممثلى السيد طه النهري و آخرين غير هؤلاء الامر الذي اشعر من حوله بانه يعد العدة للعودة وشن هجوم على القوات التركية المرابطة في بارزان و حوالها بعد ان لاحت في الافق بوادر العاصفة الكبرى التي اجتاحت اوروپا والشرق الادنى. (٥)

٥ - من المفيد ان نثبت هنا راي الاستاذ جرجيس فتح الله كته لنا بعد مطالعته هذا الفصل «في الواقع ان ماذكره المحقق الروسى المعروف فاسيل نيكيئين عن مفاوضات الشيخ المسؤولين الروس و جوابهم له وان لم يسنده الكاتب الى مصدر رسى انما يستقيم مع منطق الاحداث والموقف السياسى الدولى فى الحين. صحيح ان روسيا القيصرية كانت قبل سبع سنين قد عقدت حلفاً بريطانيا من مقتضاه تنسيق سياسة الدولتين فى انحاء عدة من الكرة الارضية ولاسيما سياستها فى الشرقين الادنى والاوسط اعنى الدولة العثمانية فضلاً عن التنسيق الثلاثى (الروسى - البريطانى - الفرنسى. المعاهدة الروسية - الفرنسية للعام ١٩٠٤) الا ان الاتجاه السياسى الداخلى فى روسيا كان ابعدهم من ان يتحول عن المانيا فجاة او بصورة سريعة فالقيصر الضعيف كان يقف بين انصار الحلف من الوزراء و رجال الحكم و فى مقدمتهم وزير الخارجية (ايفولسكى) و بين فريق قوى من اعضاء الحكومة و رجال البلاط و بعض قادة الجيش الروسى الذين هم من اصل پروسى تتزعمهم القيصرية الالمانية الاصل الواقعة تحت التأثير الروحى للراهب الدجال (راسپوتين) فضلاً عن ميلها الطبيعى لبنى قومها. كان القصر مصدر كل السلطات يقف حائراً متذبذباً بين هذين الفريقين. ويتطرق الكاتب والمورخ البريطانى (كيث فيلينج **K. Feiling**) فى كتابه (تاريخ انكلترا - ط - ١٩٦٦ ص ١٠٤٩ الى هذه النقطة بالذات بقوله «حقاً اننا كنا بعيدين جداً عن حلف متين (حلف ١٩٠٧) مع روسيا حيث الوزراء الاقوياء و رجال البلاط المتنفذون يميلون القيصر الضعيف تجاه المانيا. برهن هذا سياسة اللف والمداورة التى اتبعها وزير الخارجية الروسى (يقصد ايفسكولسكى) ١٩٠٦ - ١٩١٥ بين هذين النفوذين». ان هذا الصراع بين انصار المانيا وانصار الحلفاء من رجال الحكم فى روسيا او بكلمة اخرى هذا التذبذب كان يزداد حدة فى الواقع بدنوالمقرب من ساعة الحرب وينعكس على السياسة الخارجية بشكل عجز عن اتخاذ قرارات مصيرية. ونجم عن ذلك ان رجال السلطة فى موسكو او فى الاقاليم البعيدة منها ما كانوا يستطيعون البت فى موقف واضح من الدولة العثمانية التى كان الاتحاديون يدفعون بها باصرار وعناد الى احضان المانيا. ولذلك ارى ان الشيخ عبدالسلام قد تلقى افضل جواب يمكن ان يتلقاه مثله فى تلك الظروف الغامضة القلقة ان كان ما اثبته فاسيل نيكيئين قد وقع فعلاً.

الفصل الرابع والثلاثون

خاتمة المطاف

كانت المخابرات التركية التي دأبت على ترصد حركات الشيخ قد علمت برحلته الي (تفليس) ومقابلته بعض المسؤولين. فالمنطقة التي استقر فيها مع انصاره كانت قريبة جدا من الحدود التركية وكان يسهل استقاء الانباء ببذل المال والوعود لنوى النفوس الرخيصة. كما تابعت الاتصالات المتتالية التي اخذ الشيخ يقوم بها بعد عودته من (تفليس) مباشرة واطمعت الجائزة المرصدة من قبل والي (وان) المدعو (درويش صوفى عبدالله) احد صغار رؤساء الشكاك الذين يسكنون تركيا فكمن له في طريق عودته من زيارته لـ (سمكو).
تشاء المقادير ان يحصل التباس بسيط هو الذي ختم على مصير الشيخ اذ عندما فرغ من زيارته ارسل الي اتباعه يطلب ان يتواله بفرسه واستقباله في الطريق. الا ان الرجال الاثني عشر الذين خرجوا لاستقباله بأمره (سعيد ولي بك) و (ابراهيم قادرسيرى) سلكوا طريقا آخر غير الطريق الذي عاد منه الشيخ فلم يلتقوا به. وكان الشيخ قد اعتذر عن قبول اقتراح (سمكوشكاك) بان يرفق معه مسلحين من رجاله. ان طرح الشيخ جانب الحذر ومخاطرته بالمسير حذاء الحدود وفي ارض قريبة جدا من اعدائه الذين دابوا على وضع الخطط لقصه وعرضوا جوائز مالية للقبض عليه وليس معه الا ستة من المسلحين، الامر يستوجب الحيرة والتساؤل.

كان (صوفى عبدالله) كما قلنا ينتظر مرور الشيخ وهو في مكنه مع قوة من رجاله و ما ان لمح حتى ترجل هو واعوانه وتوجهوا اليه مظهرين كل تجلة واحترام وقالوا انهم جاؤا لاستقباله حاملين اليه رجاء اهالى القرية بتشريفها حتى تحل بركته فيها فاعتذر الشيخ بضيق وقته فألح (صوفى عبدالله) وحلف الجميع بالايان المغلظة انهم سيسعلون النار ببيوتهم ان لم يلب الشيخ رجاءهم وغالوا واشتدوا فى اللجاجة فنزل الشيخ عند رغبتهم مكرها وبلغ مشارف القرية بصحبة مراقبيه (على مح وعزير گوهار ونورى خاله و صالح عقراوى و عزيز و احمد حاجى امين عقراوى (١) . فلم يشعروا الا وقد احاط بهم مسلحون جدد احاطة

١- كان صوفى عبدالله باعداده هذا الكمين والسيطرة على الطريق وتوزيع قواته على هذه الثاكلة ان يقبض على الشيخ حيا فاذا وجد مقاومة فانه كان مصمما على الفتك به وتسليم جثته للسلطة التركية طمعا بالجائزة.

السوار بالمعصم فالتفت الشيخ وخاطب رفاقه قائلاً: «أتشعرون بخوف؟» فاجابوه ان بناذقنا محشوة. وسار الشيخ نحو القرية التي تقع داخل الحدود التركية يحف به الموكب الشاكي السلاح ودخل منزل (صوفى عبدالله) وحده. وما ان غاب عن انظار البقية حتى بادر رجال (صوفى) الى الطلب من اتباع الشيخ بالقاء سلاحهم وافهمهم (صوفى) بانهم اسراه. فابى الرجال الستة واسرعوا يتفرون فرادى مستترين بزوايا منازل القرية لاتخاذ مواقع لهم فانهازل الرصاص عليهم من اسطح الدور وقتل اثنان منهم (احمد حاجى امين) و (عزيز گوهار). وعند سماع الشيخ لعلعة الرصاص خرج فعثر بجثتى رفيقيه فصاح مستنكراً «هذا ليس من شيم الرجال». واذا ذاك تقدم منه (صوفى عبدالله) مصوباً فوهة بندقيته الى صدره هاتفا به (انت اسيرنا) ثم استدار ونادى الاربعة الباقين يطلب منهم القاء سلاحهم والا لقوا نفس مصير الاثنين الاخرين. فالقوا سلاحهم واستسلموا.

سبق الشيخ ورفاقه فى اليوم التالى الى اقرب مركز عسكري تركى و وجد نفسه فى اليوم الثانى يمر بين صفين من الجنود الاتراك الى خيمة القائد. كانوا شبه عرايا فقد نزع رجال (صوفى) ثيابهم الخارجية عنهم ولم يبقوا عليهم الا ما يستر عورتهم. حاول الشيخ اقناع القائد التركى بالسماح لاحد اتباعه (هو على مح) بالعودة لنقل الاسر البارزانية من (مهرگه وهر) فاستجاب لطلبه. واخذ الشيخ ورفاقه الى مركز ولاية (وان) ومنها نقلوا الى (دياربكر) ثم جاءت بهم قوة تركية الى الموصل.

فى تلك الفترة العصبية من حياة الشيخ كان كل تفكيره منشغلاً بمصير قومه فى ديار الغربة. فقد قدر ان الروس قد يفسرون الكمين الذى وقع فيه بانه مواطأة بين الشيخ والعثمانيين يقصد به تغطية تحوله الى الولاء العثمانى وخشى ان يصبوا جام غضبهم على الاسر البارزانية التى كانت حينذاك ضمن المنطقة التى يسيطر عليها الروس. فما حصل كان يصعب تصديقه بسهولة. ولقد كان تقدير الشيخ صحيحاً فقد ضل سعيد ولى بگ و ابراهيم قادر سيرى وصحبهما الطريق والتقت بهم دورية روسية فالقت القبض عليهم جميعاً واودعوا سجن (اورميه) الا ان صديقهم (آغابطروس (٢) توسط لهم عند القنصل الروسى

٢- يصعب علينا ان نعرف القارى تعريفاً كاملاً بشخصية (آغابطروس) فى بضعة اسطر. هاجر من (حكارى) وهو قسى الى كولومبيا البريطانية فى امريكا الجنوبية. وعمل بمختلف الاعمال ثم تورط فى حادث قتل فهرب الى اوربا وجمع اموالاً من تبرعات الاوروبيين لايتم حروب البلقان وزار (پاپا) روما وحظى منه (الانجيدرى كيف) بلقب شرف ووسام ثم عاد الى تركيا و (اشترى) لنفسه منصب نائب قنصل تركى فى اورميه. وعندما انسحب الاثوريون من حكارى بقيادة المارشومون بنيامين تتعقبهم قوات على احسان پاشا التركية والقت الحصار على اورميه برزت مواهب آغا بطروس العسكرية فى دفاعه عن المدينة. و فى ١٩١٧ بعد ان اخفق البريطانيون فى ارسال مساعدة للمحاصرين قاد آغا بطروس الانسحاب الفاجع جنوباً الى بعقوبة وفى ١٩٢٥ اقنع سلطات الاحتلال البريطانية فى العراق بتجهيز حملة من الاثوريين لاستعادة اوطانهم فى حكارى كان هو قائدها الاعلى فمنيت بالاختراق قبل بلوغ الهدف وعاد الى بغداد يخلق المتاعب للسلطة حتى ضاقت به ذرعا و اخرجته من البلاد فعاش فى سوريا ردحا ثم انتقل الى فرنسا وتوفى فيها. واحفاده وبعض ولده مازالوا هناك.

الذي اذهلته مفاجأة القبض على الشيخ عبدالسلام فبادر الى اطلاق سراحهم بعد ان اخذ منهم سلاحهم وخناجرهم. و نصحهم اغابطروس بعدم اضاءة الوقت في التسكع وأن يرحلوا فوراً فمن الصعب افهام الروس بحقيقة ماجرى.

تجدد الاشتباكات في بارزان

كانت رسالتنا الشيخ لقائديه تتضمنان امراً بتعبئة قواتهما وشن هجوم على قوات الحكومة العثمانية المرابطة في بارزان و اخراجهم منها ثم توسيع نطاق العمليات لتشمل المنطقة جميعاً وبهذا يتوصل الى اقناع الروس بجدوى مساعدتهم له. وقد نفذ هذان القائدان امره و هاجموا بارزان واحتلوها من دون مقاومة تذكر لصغر الحامية العسكرية فيها وبرز من افراد المهاجمين (سليمان وسمان آغا و ملا ملامحمود وحاجي دوري و عيسى سيلكي وميرالي كوركبي وككشار ميرگه سوري) وكان مجموع القوة لايزيد عن مائة مسلح. وتم احتلال بارزان قبل ان يعرفوا بنبا القبض على الشيخ.

عادت السلطة فاستنفرت العشائر الموالية مجددا وسأقت قواتها النظامية فتدفقت الى بارزان وطوقتها من جميع جهاتها الا ان المدافعين ردوا القوات الحكومية على اعقابها مراراً ملحقين بالمهاجمين الخسائر تلو الخسائر.

كان الوقت خريفاً والساتين الكثة في اسفل منازل القرية مازالت محتفظة باوراقها وكان الطرفان يستخدمان ظلالها للتخفي وتوجيه نيرانهم احدهما الى الاخر كلما حانت فرصة . ولجأ البارزانيون الى حفر الخنادق في بعض المواضع المكشوفة واحد ثوا اتفاقاً بينها ليسهل انتقالهم خلالها باتجاهات مختلفة. وظل القتال على هذه الشاكلة اياماً. ولم يكن المدافعون يشكون الا من فقدان عنصر (الملح) في طعامهم(٢)!

بالاخير ارغمت السلطة بقية القبائل التي لم تنزح مع الشيخ الى ايران من المزوري و به رروزي وشيرواني على المشاركة في الحملة. و ثبت المدافعون اعتقاداً منهم بان المساعدة الروسية لاشك قادمة بمساعي الشيخ. وكان التراشق بالنيران مستمراً دون انقطاع ليل نهار مصحوباً بالتراشق بالشتائم و عبارات السخرية والاستهزاء. المرتزقة يندرون البارزانيين بدنو ساعتهم ولات حين مناص والبارزانيون يتحدثون هؤلاء بالخوف من التقدم

٢- مادة الملح ممالا يستغنى عنه في طعام الكرد لاسيما في تلك الانحاء.

منهم (٣).

ورغم ان المهاجمين لم يكتموا عن البارزانيين نبأ القبض على شيخهم ونصحهم بالاستسلام والمعاملة الطيبة الا ان البارزانيين لم يلتفتوا اليهم ولم يصدقوا خبر القبض على الشيخ وعدوه من جملة اكاذيب اعدائهم للليل من معنوياتهم. وظهر البارزانيون الوانا من البطولة لا يمكن اغفال طائفة منها فقد اصيب احد المقاتلين (ملا ملامحمود) بحمى محرقة وهو فى خندقه وكان الى جانبه قريبه (ملا وسمان) فامر ان يحشوله بندقيته ويراقب له مكن احد المرتزقة فى الهضبة الشرقية (كهرتينك) الذى كان يزعجهم بشتائمهم وسخريته. فنهض (ملا ملامحمود) له ولم يكن ليحتاج الى اكثر من لحظة اخرج فيها المرتزق راسه من مكمنه فاطلق عليه رصاصة اردته قتيلاً لساعته رغم بعد المسافة. ولم يجرؤ اصحابه على سحب جثته حتى حل الظلام.

تجاوز الحصار اسبوعه الثالث دون ان تتمكن القوات الحكومية والمرتزقة من اقتحام القرية. وكان بطل الميدان بحق البارزاني (محمد هو كى) الذى اصبح مضرب المثل فى الشجاعة والاستبسال والمفاداة.

واستنجدت امرية الحملة بالمدفعية فجىء بها من الموصل فى شهر كانون الثانى و نصبت على مرتفع وسط هتافات المرتزقة والجنود الترك. ومالبثت ان اخذت تصب حممها تباعا على البارزانيين الا انهم ظلوا ثابتين فى خنادقهم.

تدخل اولئك الذين كانوا من انصار الشيخ وارغموا على قتال اخوانهم بعد ان ادركوا مصير هؤلاء اشفاقاً فاتصلوا سرا بهم وصارحهم بصحة نبأ القبض على الشيخ وبوضعهم المينوس منه واتفقوا معهم على ان يسهلوا لهم عملية الافلات من الطوق. فاندفع البارزانيون من خنادقهم بهجمة صادقة وافتلوا من الحصار وتفرقوا فى طول المنطقة عرضها. وكانت تلك آخر معارك بارزان فى العهد العثماني.

حكمت الحكومة التركية قبضتها على بارزان واعتقلت مائة واربعين بارزانيا واقتادتهم الى سجون الموصل حيث توفى عدد كبير منهم و من بينهم خال الشيخ. واستمر لتعقيب بحق البقية فقتل كثير من اتباع الشيخ وعاد الاغوات مجدداً لشفاء غليلهم من المنطقة برمتها.

٣- من بين المرتزقة - كان ثم سورجى سليط اللسان لم يكف لسانه عن نشر الشتائم وهو متواربين شبكة من السواقي بين البساتين فيرد عليه احد البارزانيين قائلاً «لوسددت فمك و تفضلت بالخروج من الساقية لامكنا التفاهم بكل بساطة دون شك» فيجيبه السورجى متهمكاً «لقد جنت من بجيل عدوا قطعت هذه المسافة الطويلة عن من اجلك. اما ترى كم انا تعب؟ اليس من الواجب عليك ان تكمل الخطوات الباقية لاستقبالي؟ فى تلك الاثناء استطاع احد رفاق البارزاني الذى كان طرفاً فى المحاوراة ان يقف على مكن السورجى فيصرعه برصاصة ويبقى اخر جملة من سخره غير كاملة.

الفصل الخامس والثلاثون

محاكمة الشيخ عبدالسلام واعدامه الحياة

عاد النازحون الى ايران مع الشيخ الى ديارهم اثر القاء القبض عليه الا انهم لم يرجعوا الى قراهم خوفاً من التعقيب وتفرقوا في عدد من القرى واتشعبت اسرة الشيخ من النساء والاطفال فسكن قسم منهم في قرية (نيري) وبقي قسم اخر في قرى (اوليا) و (گرانه) و (بيرسيآقه) و (زيت). واختفى ابراخوة الشيخ (الشيخ احمد) مع اخيه الاخر (محمد صديق) خشية من السلطات كما التجا معلم الشيخ (ملا احمد) الى الجبال لان السلطة كانت جادة في اثره. وقد ارسلت والدة الشيخ وهي في مخبئها رسولا للتحقق من مصير ابنها في الموصل وكان اذ ذاك قد وضع في الشككة العسكرية تمهيدا لمحاكمته امام المجلس العرفي العسكري. جرى به مخفورا وتحت حراسة مشددة من ديار بكر ولما علم سليمان نظيف بموعد وصوله «ركب عربته واتجه نحو الطريق حتى وصل الى الموضع القريب من مرقد (الشيخ قضييب البان) (في ضواحي الموصل) فاوقف عربته وجلس على حافة الطريق. وبعد برهة جرى بعبد السلام وكان قد اركب بغلة والجنود يحيطون به من كل جانب فنهض سليمان نظيف و توقفت القافلة ثم اقبل على عبدالسلام وساله

- انت عبدالسلام البارزاني؟

اجاب الشيخ

- انا هو

قال سليمان نظيف

- لماذا عصيت الاوامر ولم تجيء الى الموصل واخترت المجيء على هذه الشاكلة؟

ثم ركب عربته وقفل راجعا واقتيد عبدالسلام الى محبسه.

وقد استطاع (لقروك) رسول والدة الشيخ ان يواجهه في السجن. واعطاه الشيخ

متديله لا يصله الى والدته كما اعلمه بانه سيقدم للمحاكمة بعد مدة و اوصاه ان يعود

ليحضر وقائع المحاكمة ويتلقى النتيجة

يقول صاحب كتاب (امارة بهدينان) عن سليمان نظيف هذا الوالى الذى ترغمنا

اجراءاته الشاذة اللاقانونية بحق الشيخ عبدالسلام و بارزان السابقة منها واللاحقة - علي

الاستنتاج بانه لم يكن يعد الشيخ ثائرا على دولة متفسخة مهترئة فحسب وانما عدوا شخصيا

له تجرد على عصيان او امره ورفع السلاح ضده وهو الحاكم المطلق الذي لا يرد له امر. يقول
الدملوجي عنه «هو ابن سعيد پاشا الديار بكري و امه يزيدية من عشيرة (الخالتيه) واذن
هو كردي ابا واما. تخرج في المدرسة الملكية الشاهانية باستنبول و اندمج في صنف الادباء.
كان على كرديته متشيعا للطورانية و من اكبر الدعاة اليها... وكان عنصراً فعالاً في جمعية
الاتحاد والترقي اول ما عرفته في مجيئه الى الموصل (١٨٩٥) كاتب سر للفريق عبدالله پاشا
الذي جاء بمهمة الاصلاحات في كردستان و اشغل زمنا ولاية الموصل بالوكالة. كان يسير
على سياسة مقاومة العناصر غير التركية ومنها الكردية و كان من اول اجراءاته ان قبض
على سعيد بك ابن عبدالله پاشا الرواندوزي المع شخصية عرفت في الاكراد و سجنه. و تعقب
(الشيخ و عبدالسلام البارزاني) بقوة من الجيش و نفير عام من العشائر المعادية له و نكل به
و خرب زاويته ثم قبض عليه بواسطة العشائر و حاكمه و اعدمه.... قام سليمان نظيف بهذا
يريد ان يكون له ذكر تتناقله الالسن و يتردد صداه في الاذان فكان ذكراً مستهجننا ممجوجاً
دل على روح متمرده طاغية فيه».

تشاء الصدق ان يكون مؤلف كتاب (امارة بهدينان) (١) معتقلاً في نفس السجن
ورفيقا للشيخ في زنزانته. و قد اغنى و الحق يقال كتابنا هذا بتسجيله و قائع اللحظات القليلة
الاخيرة التي عاشها الشيخ عبدالسلام في هذه الدنيا قال «... جاؤا في المساء (الاول من
كانون الاول ١٩١٤ الموافق ليوم ١٥ محرم ١٣٢٣ هـ) بالشيخ عبدالسلام البارزاني الينا في
السجن و انا اعرفه جيداً و سبق ان اجتمعت به مرة. و قد نقل الى السجن الملكي بعد ان انتهت
محاكمته في مجلس الديوان العرفي العسكري. سألته ماذا تم من امره؟ اجابني انتهى كل
شيء و سيريقون دمي. و كان الالم بادياً على وجهه. قلت له. هون عليك يا شيخ و الحكومة
ليس من صالحها ان تعدم رجلاً عظيماً مثلك و وراء كل ضيق فرج. فاجاب -
- كلا. ليس لي امل في الحياة. و هذا الوالي قد صمم على قتلي.
قلت.

- ليس الامر بيد الوالي وحده مالم توافق استنبول على ذلك.

اجابني.

- كلهم شيء واحد. لكنهم مخطئون. (ثم فكر قليلاً) ان دمي سيكلفهم ثمناً غالياً.
و انا اخاف على اولادي و اخوتي من بعدي.
و ظل يكرر هذه الكلمات.

أ- يذكر صديق الدملوجي سبب توقيفه ان سليمان نظيف اتهمه بمسؤولية ايقاد نار التمرد المسلح في تلعفر الذي وقع ايام
ولاية سلفه (اسعد پاشا الدرزي) بصفته مديراً للناحية و «... اتهمني بكل مانص عليه قانون العقوبات العثماني من جرائم
و حاكمني عليها و لما لم يتمكن من التأثير على عدالة المحكمة احالني الى الديوان العرفي العسكري المشكل في الموصل
الا ان انفصالي عن الولاية و اعادة محاكمتي حقق براءتي.

«... في الليلة الثانية وقد فرغنا من صلاة العشاء فتحت ابواب السجن فانقبضت نلوبنا. وفتح ابواب السجن في مثل هذا الوقت نذير الشر نحن المسجونين في هذه الغرفة عبدالعزيزيك قائمقام عقرة وحاجي پيرداود اغا من اغوات عشيرة الدزهى و حكمت افندى مامور برق وبريد كركوك. وعبدالغنى افندى مامورطابو السليمانية. تقدم رئيس السجانيين (قاسم حسن) وضابط الجندرمه (تحسين افندى) و ناديا الشيخ عبدالسلام واخذه. ثم عادا واخذوا خادمه (محموداً) و خادمه الاخر (موسى) (٢) و (محمدأغا هيشتى) وهو احد رؤوساء الريكانيين وذهبوا بهم. لقد اصابنا الوجوم وكانما اجنحة الموت ترفرف فوق رؤسنا(٣)».

«... انى اسجل هذا للحقيقة والتاريخ - ينفذ حكم الاعدام الصادر من المحاكم المدنية او المجالس العرفية عادة بمصادقة السلطان. وقد طلب سليمان نظيف المصادقة على الحكم الذى اصدره المجلس العرفى العسكرى بالموصل بحق الشيخ ورفاقه الثلاثة. الا انه لم ينتظر صدور الارادة السلطانية (الفرمان) بالمصادقة على التنفيذ. ويظهر انه كان يخشى ان يبدل الحكم او يرجأ الى اجل غير مسمى وهذا مايقع كثيراً. اذن ماذا يفعل؟ او عزالى الضبطية (شرطة المدينة) ان يطلقوا طلقات نارية في مختلف انحاء المدينة لايهام الناس بقيام محاولة مسلحة ترمى الى انقاذ الشيخ عبدالسلام. و امر بتطويق السجن بفوج من العساكر النظامية واخرج دوريات تطوف بالمدينة و سارع الى نصب المشائق (٤)».

وابرق الى الباب العالى بان اجراءاته المملوءة حزماً قضت على ثورة كادت توقع المدينة فى خطر.»

احيط السجن بفوج من العساكر النظامية وكتيبة من الجندرمه الخيالة. واخذ الاربعة الى ساحة التنفيذ بين الثكنة العسكرية والثكنة الملكية حيث اعدت اربع مشائق. واحضر العالم الكردى (امين افندى القره داغى) لتلقيين المحكومين كلمة الشهادة ثم توجها الشيخ عبدالسلام وقرأ القرآن وصلى ركعتين ولما اصعد الى المشنقة توقف وقال.

- لى كلمة اقولها للوالى. ان الحياة والموت عندى سيان الا ان موتى بهذا الشكل ليس من صالح الدولة فليحقق دمي وانا اقدم للجيش معونة الف بغل بحمولتها (وكانت تركيا على ابواب الحرب) وسارابط على الحدود بقواتى.

ولم يلتفت الى اقواله وتقدم من المشنقة وهو يردد ان موته ليس فى صالح الدولة.

وشنق محمدأغا هيشتى الريكانى (نسبة الى قرية هيشت) احد رؤوساء الريكانيين

٢- بخصوص اسماء رفاق الشيخ المشنوقين والاختلاف فى هوياتهم. انظر الصحائف التالية

٣- امارة بهدينان - الفص ١٠٢-١٠٣

٤- يقول صاحب الضحايا الثلاث فى تعلييل اطلاق الرصاص «صورت الاوامر الى بعض الجندرمه بان يطلقوا الرصاص اشعاراً باعدام الشيخ وفى تلك الليلة نفسها لغاية خروج الاهالى لرؤية المشهد الفظيع وقبل ان يتنصف الليل جرى بالشيخ عبدالسلام مع الثلاثة المحكومين...»

وهو في حدود السبعين من العمر وكان يردد أنه ريكاني وليس زيباريا «لماذا تشنقوني وأنا بريء لم أفعَل شيئاً»

اختلف الكاتبان الوحيدان اللذان ارخا هذه المأساة في هويتى الضحيتين الباقيتين
فبينما يثبت (صديق الدمولوجي) اسمى (محمود و موسى) بدون ايراد اللقب او الشهرة او اسم
الاب ويعرفهما بكونهما خادما الشيخ عبدالسلام. نجد مؤلف الضحايا الثلاث يثبت اسمين
اخرين (بهوياتهما) ليس بينهما وبين هوية (محمود و موسى) علاقة ما. وان كان وصفهما
عند الكاتبين يتطابقان تماما و هما (عبدى اغا المزورى - وهو في دور الكهولة (عند
الدمولوجي: موسى الذي يبلغ الستين من العمر) و (على ابن محمد امين اغا المزوري) - من
قرية باسيفيا وكان شابا في مقتبل العمر (عندالدمولوجي: محمود وهو شاب في العشرين من
العمر). اتفق المؤلفان بانه تقدم من المشنقة بجراءة واقدم وهو ينادى بالكردية» خولى به سر
حكومت. ابكستنى من بارزانى خلاص نابن = رماد في راس الحكومة. البارزانىون
لايتنهون بقتلى). (اي خدان بارزان انا كبشه انا قربان له)

المؤلفان كلاهما من اهالى الموصل وقد نشر كتاب الضحايا الثلاث بعد فترة
قصيرة من صدور كتاب (امارة بهدينان) وكانى بمؤلف (الضحايا الثلاث) قد قصد تصحيح
ماورد من وهم عند مؤلف الكتاب الثانى فى ايراد وقائع هذه الماساة عندما اثبت الفقرة
التالية تدليلاً على صحة معلوماته اذ قال «وجدت اسماء المعدومين مدونة بمجموعة
مذكرات المرحوم خالى محمدبىك ابن صالح بك آل امين بك بخط يده وهى الان بحيازة
ولده السيد محمدامين المقدم بالجيش العراقى حالياً.... ولما كانت الروايات الاخرى فى
الاسمين الاخيرين من هؤلاء المعدومين قد اختلفت فقد اتصلت باناس بارزانين - وصاحب
الدار ادرى بما فيها كما يقول المثل فايداً لى الاسماء التى ذكرتها بالاجمال».

فى الواقع ان هذا الاختلاف فى اثبات هوية المشنوقين الاخيرين كان مصدر حيرة
لنا شخصياً وقد ضاعت محاولتنا هباء فى التعرف على الحقيقة من التواتر المحلى وليس
ذلك بغريب اذا ما وضعنا فى تقديرنا الظروف التى كان يعيشها البارزانىون الملاحقون
المشردون فى ذلك الوقت وعدد المعتقلين فى السجون و من مات منهم داخلها
ومن قتل منهم اثناء المطاردة والتعقيب. علما بان الجثث لم تكن تسلم الى ذويها وانما كانت
تدفن فى قبور مجهولة وتخفى معالمها كما حدث لجثمان الشيخ عبدالسلام.
لقد كان اقرب الى المعقول ان لايرضى سليمان نظيف بقتل مجرد خادمين للشيخ
وان يطمح الى اناس ارفع شانا واخطر مقاما ليضرب بهم مثلاً للباقيين وهذا مايجعلنا نرجح
رواية (الضحايا الثلاث).

لم تسلم جثث المشنوقين الى اهلها بطبيعة الحال ودفن الشيخ ورفاقه فى المقبرة

المقابلة لمرقد ومسجد الشيخ عمر المولي (وهي مقبرة الغرباء والمنقطعين) وتدعى الآن بمقبرة البويدران. ولم يوضع على قبره علامة تشير الى من يضمه القبر ولذلك ما لبثت أن ضاعت آثاره وراحت كل المجهودات التي بذلت لمعرفته عينا بعد تأسيس الحكم الوطني. وعاد الرسول (لقروك) الى والده الشيخ وليس معه غير الثياب التي تركها الشيخ في السجن قال الديمولوجي «... اراد البعض ممن يعطف على البيت البارزاني أن يقفوا على قبر الشيخ عبدالسلام وكان قد دفن في مقبرة الغرباء قرب جامع (عمر المولي) فلم يقفوا له على اثر. ويقال انهم دفنوه ورفقاه الثلاثة في حفرة وساووها مع الارض واخفوا معالمها... فماضر سليمان نظيف لوابقى على قبره؟ اخوفا من ان يتخذاه اهل الموصل مزارا ويعبدونه؟ ام ياتي البارزانيون يسرقونه؟ اخوفا من الاموات ام نكايه بهم؟ ام تشفيا؟ ام القصد اهانة شعور هذه الامة وسحق كرامتها؟ ويسمى هذا اصلاحا؟»

في الثامن والعشرين من تموز ١٩١٤ اندلعت الحرب العالمية.

وفي الثاني والعشرين من شهر تشرين الثاني اعلنت تركيا الحرب على الحلفاء الى جانب دول الوسط (المانيا والنمسا).

وفي ليلة ٢/١ من شهر كانون الاول ١٩١٤ اي بعد ساعة وبضع ساعة من تنفيذ حكم الاعدام بالشيخ عبدالسلام انزلت بريطانيا حملتها المشهورة لاحتلال العراق في خليج البصرة.

كان منجل ملك الموت يحصد الآف الارواح يوميا في البر والبحر، والعالم كله في شغل عما يحدث في هذا الجزء القصي المغمور من الامبراطورية العثمانية المتداعية. والناس جميعا يقفون على فوهة بركان متفجر لا يبقى ولا يذر. كل يفكر في مصيره المجهول. فاي مكان ترى يمكن ان يحتل اعدام الشيخ عبدالسلام البارزاني ورفاقه من الضمير العالمي انذاك؟ لقد أصر والي الموصل ان يجعل من فعلته حدثا تاريخيا به حفظ كيان امبراطوريته ولم يشأ ان يكتفوا روح التشفي والكيد التي يحملها للرجل الذي اعدمه الحياة فحضر ساحة الاعدام بعد التنفيذ مباشرة ووقف هو وهيئة الديوان العرفي العسكري تحت المشانق التي كان يتدلى منها جثث الضحايا امام عدسة آلة التصوير معجبا متباهيا بما أنجزه وطبع الصورة الفوتوغرافية بهيئة بطاقة مصورة (كارت پوستال) ونشرها في الخارج واذاعها بين البارزانيين أنفسهم.

هذه الاعمال وغيرها هي التي اوردت الامبراطورية العثمانية حتفها وهي كفيلة بالقضاء على كل حكم يمارسه حكام مستبدون لاتعرف العدالة ولا الرحمة الى قلوبهم سبيلا (٥)

٥ - (من مقالة العائلة البارزانية - شمس كردستان) اما الخائن صوفي عبدالله فقد بقي مدة طويلة في (وان) ينظر المكافاة التي لم يحصل عليها قط. ولقد قال له جودت بك الوالي (لم يبق لك الا ان تسمح فمك) وظل هو واعونه في وضع تاعس في (وان) ولم يجرؤوا على الرجوع الى ديارهم وعشيرتهم. ارادوا ان يجنوا من الشوك وردا ولم يدروا بان الانسان لا يجني من الشوك غير الشوك (ف. تيكيئين ص ٢٢)

بهذا انطوت آخر صفحة من حياة رجل استطاع رغم صغر سنه و قلة حظه من العلم و التجربة و ضيق افق مجتمعه و محدودية دائرة تحركه ان يكسر كل هذه الاطواق التي تشده بالدين و العننات العشائرية و الافتقار الى المعرفة ليحلق في جو ارحب و يعمل في ميدان اوسع هو ساحة النضال الوطني و التوعية القومية و التحرر.

و مع ان كلمة (لو) لا محل لها في تحليل الاحداث التاريخية و الوقائع المؤثرة على انتقالات المجتمعات البشرية. و مع ان عقارب ساعة الزمن لا ترجع الى الوراء فتعيد الاحداث المارة كما يعاد عرض الفلم السينمائي ليحذف منه ما يحذف ويضاف اليه ما يلزم اضافته كي تسقيم القصة كما يجب و يتم تدارك الاخطاء، الا ان المرء لا يسعه الا ان يفكر يه أهمية الدور الذي كان مقدرًا للشيخ عبدالسلام (لو) بقى حيا. والى التأثير الذي كان سيحدثه في مجرى احداث الشرق الاوسط و الحركة القومية الكردية (لو) التزم بقليل من الحذر و (لو) ابي النزول عند رغبة المتأمر على حياته. كيف سيتناول قضية شعبه بعد ختام الحرب العالمية الاولى و طرح قضايا تحرر الشعوب في المؤتمرات الدولية التي تلت الحرب (لو) لم تتيه القوة التي خرجت لاستقباله و حمايته؟ ماذا سيكون دوره من انتفاضات الشعب الكردي المسلحة التي حصلت في العراق و ايران و تركيا (لو) كان على الموصل وال منصف ملتزم باحكام القانون غير سليمان نظيف؟

تم الكتاب

الملاحق

- ١- العمامة البارزانية الحمراء
- ٢- ملحمة (قمرى) الشعرية وترجمتها
- ٣- قصيدة دينية زجرية للشيخ عبدالسلام الأول و ترجمتها

الملحق الاول

في العمامة البارزانية

من اظهر ما اتخذته البارزانيون تمييزا لنفسهم عن سائر جيرانهم هو شدهم العمامة الحمراء. وقد جلب هذا انتباه كثير من الاوساط على الصعيدين الاجتماعي والعلمي فتساءلوا عن الدوافع والاسباب. ومتى اتخذت؟ ومن اشار باتخاذها وكيف أصبحت العلامة الفارقة للبارزانيين وحلفائهم؟

ومع اعتقادنا بان الموضوع جانبي. وهو اقل اهمية من ان نتناوله بالبحث ونفرد له جانباً من هذا الكتاب. الا ان صيرورة هذه العمامة في مناسبات سياسية كثيرة موضع اثاره وأزعاج حملنا على ان لا نبخل على القارئ بما لدينا من معلومات هي في الواقع ليست كثيرة ولا تراها تشفى الغليل.

ان لم يكن يكمن وراء اتخاذ البارزانيين هذه الشارة دافع عاطفي ومحلي فلا شك انه لا يكمن وراء ذلك أي دافع تاريخي او سياسي. ولقد سالنا اولئك الذين بلغوا من العمر عتياً من البارزانيين فلم يضيفوا الي ما نعلمه شيئاً جديداً وقالوا انهم وجدوا اباؤهم واجدادهم يشدون عمائمهم هكذا فاقتدوا بهم. ومن الأرجح انهم اتخذوا هذا اللون المميز لهم عن جيرانهم (ذوي العمائم السوداء المرقطة بالابيض) عندما بدأت المشيخة البارزانية تفقد صلتها القبائلية والاجتماعية مع سائر القبائل الزيبارية التي كانت هي جزء منها.

والامر واضح فالقبائل الكردية في سائر انحاء كردستان تتخذ من غطاء الراس بصورة خاصة (دعك من الزي) علامة فارقة تتميز بها الواحدة عن الاخرى ليسهل التعرف على افرادها. واذا ما نحن حاولنا احصاء ووصف انواع واشكال واللوان العمائم التي يشدها الاكراد في كل مكان لاقتضى ذلك منا مجلداً كبيراً دون ايفائنا بالغرض. وكل ما في الامر بالنسبة الي البارزانيين انهم ظهروا على مسرح التاريخ والنضال المسلح اكثر من غيرهم في العقود المتاخمة من هذا القرن الامر الذي استجلب الاهتمام بمعرفة اصل اتخاذهم هذا اللون لعمائمهم. فقد كانت في الواقع عامل اثاره وازعاج كبيرين لبعض الحكومات العراقية تحدث فيها ما تحدثه جبة مصارع الثيران الحمراء من هياج وغضب في الثور الى الحد الذي دفع باحدى تلك الحكومات الي ان تجعل ابطال اتخاذ هذا اللون للعمائم شرطاً من شروطها على البارزانيين في احد المفارضات الرسمية إثر واحدة من انتفاضاتهم المسلحة في الثلاثينات من هذا القرن.

ومن يدري؟ فلعل ثم اصولاً تاريخية للقرار باتخاذ هذا اللون بالذات. خفي عن الاتباع وامر به شيخ بارزان الاول او الثاني دون ان يرى ضرورة لتفسير الحكمة في اتخاذها اذ

لم يكن الشيخ عادة ملزما بتفسير سلوكه او قراراته لاتباعه ولذلك بقي الامر سرا كما بقي تاريخ البدء باتخاذ هذا اللون مجهولا منا.

والواقع ان البارزانيين لم ينفردوا في تاريخ المشيخات الصوفية في الشرق الاوسط باتخاذ الاحمر شعارا للراس. فقد سبقتهم الى ذلك (القرلباشية) وهي المشيخة الصوفية بزعامة (الشاه اسماعيل الصفوي ١٤٨٧-١٥٢٤). اذ كانت القبائل الازريجانية التسعة التي الفت النخبة الممتازة من جيشه تسمى بالقرلباشية وبالتركية تعني (ذو الرؤوس الاحمر) بسبب العمائم الحمراء التي كانوا يعتمرون بها والتي صارت مصدر رعب لاعدائهم وقت المعركة والتلاحم بالايدي. وهذا الجيش (الاحمر) هو الذي وضعه علي عرش ايران في ١٥٥٣. عندما فتح هذا الشاه العراق بقسميه الشمالي (بدء بكرديستان) و الجنوبي (مازال ثم بقايا من اتباع هذه الطريقة في مدينة كركوك والقرى المجاورة) وضع من هوءاء المحاربين الاشداء حاميات عسكرية بقي قسم منها بعد خروج العراق من يده. وربما كان الشيخ البارزاني الذي اتخذت العمامة الحمراء على عهده على علم بهذا فعمد الى تقليد سلفه الزعيم الصوفي الايراني؟

والشائع عند البارزانيين انهم اتخذوا الاحمر غطاء للراس تقليدا واقتداء بصحابة الرسول الاعظم الذين كانوا يعتمرون بالعمامة الحمراء اشارة الى استعدادهم لبذل ارواحهم في المجاهدة لاعلاء شان الدين. الا اننا لم نجد سندا تاريخيا يؤيد هذا الزعم. بقي امر تعليلي واحد عاطفي النزعة وهو ان الاحمر يرمز الى (الدم) لذا فهو علامة المجاهدة في سبيل الله واسترخاص الدم في سبيل العقيدة والمبدء.

على اية حال لم يكن لاتباع الطريقة من البارزانيين وغيرهم بد «من اتخاذ زي» للراس يميزهم تماما عن ابناء جلدتهم واخوانهم الزيباريين في ذلك الوقت الذي اعلنتها مشيخة بارزان حربا لاهوادة فيها على اغوات هذه القبائل الشديدة الشكيمة الكثيرة الاتباع الخاضعة خضوعا اعمى لمستغليها. لاشك انها كانت رمزا او ظاهرة تحد شجاعة لفئة قليلة انفصلت فكريا وعقائدا عن الجزء الاكبر من القبيلة ورفضت بكل عناد ان تسير معه على نهج التقاليد القبائلية فاستهدفت لاضطهاد تلك الاغلبية. واصبحت عمامتهم الحمراء مادة للدعاية ضدهم باعتبارها (رمزا للكفر والاحاد).